بيير لويس

أفروديت

آلهة الجمال والحب

رواية

تقديم ومراجعة

خالد عوض

الكتاب: أفروديت.. آلهة الجمال والحب (رواية)

الكاتب: بيير لويس

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

لويس ، بيير

أفروديت.. آلهة الجمال والحب (رواية)/ بيير لويس, تقديم ومراجعة: خالد عوض – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٦٥٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٧٢٥٣ / ٢٠٢٢

أفروديت

آلهة الجمال والحب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كتاب "أفروديت" يعد كنزا مطمورا من كنوز الأدب الفرنسي والعالمي، صاحبه هو "بيير لويس" شخصية أدبية فذة لها مكانتها الرفيعة في عالم الرواية والقصة والفكر. ومن أعماله المميزة الأخرى كتابه "قصص مختارة" وهو مجلد كبير يضم مختارات من إبداعه في فن القصة القصيرة.

بالاضافة إلى أنه رائد من رواد الرواية الفرنسية، ولو لم يكن لهذا الكاتب سوى روايته الخالدة (أفروديت) التي تجري حوادثها في مدينة الإسكندرية، ولو لم يكن له من أبطاله سوى "كريزيس" صاحبة تمثال (حياة خالدة) لكان ذلك كافيا لوضعه في الصدارة.

أما أفروديت التي يتصدر إسمها غلاف الكتاب، فهي واحدة من الشخصيات الأسطورية في الميثولوجيا الإغريقية، وهي إلهة الحب والجنس والجمال عند اليونان، وفي العديد من صور الإلهة الشهيرة تبين مدى جمال شكلها وهي تخرج من البحر والصور تُشير إلى إحدى قصص أصلها ومولدها، في حين أن الأصول الصحيحة للإلهة تكون قبل وقت طويل من الإغريق، وقد كانت أفروديت أحد أجزاء البانتيون اليوناني القديم، ومن أشهر رموزها كانت (مرآة، صدفة حمامة، حزام، تفاحة)، كما أنها كانت تمتلك الكثير من الرموز الأخرى التي ترتبط بها وتتعلق تلك الرموز بأساطير وصفات الإلهة.

ونتيجة لجمال أفروديت وانتشارها في الأساطير القديمة قد منحت العديد من الأعمال الفنية والأدبية العريقة إلهامها، ومنها هذه الرواية، وكان ذلك منذ أن قامت الآلهة بفتنة العقول البشرية لمرتها الأولى. فقد كانت كذلك الإله الراعي للبحارة والمحظيات والبغايا، كما أن الرومان كذلك اتخذوا أفروديت كإلهة لهم وكان فينوس وهو أيضًا الكوكب الذي يرتبط بها.

أصل الأسطورة

هناك عدة قصص عن ولادة أفروديت يُذكر في إحداها أن هناك امرأة ناضجة خرجت من البحر، أبوها هو أورانوس إله السماء ولا يوجد لها أم، وأحداث تلك القصة تدور قبل جيلين من زيوس، حينما تولى أورانوس مع زوجته جايا حكم إلهة الأرض، فشعر أورانوس بالكره تجاه أبنائه وأخفاهم في أعماق الأرض، وكذلك غايا قد كرهت زوجها، ولذلك قامت هي وابنها كرونوس بوضع خطة، فجهزت ابنها بمنجل وعندما جاء أورانوس بعد ذلك للنوم إلى جانب جايا، قام كرونوس بقطع أعضائه التناسلية، ثم وقعت الأجزاء المقطوعة في المحيط ولفها رغوة البحر، من تلك الرغوة جاءت الإلهة أفروديت.

وقد تم تناقل تلك القصة من قبل هسيود وهو واحد من الشعراء اليونانيين الأوائل، وقد أوضح هسيود أن اسم أفروديت يأتي من الكلمة اليونانية (أفروس) والتي تدل على "الرغوة"، والتي من الممكن أن تكون إشارة على زبد البحر أو السائل المنوي الخاص بأورانوس، وتلك الأسطورة هي التي تسببت في ولادة أفروديت من الرغوة والتي تُبين أصل اسمها.

وفي حكاية هسيود كانت أفروديت تطفو فوق سيثريا وخرجت في قبرص باليونان القديمة، وقد امتلكت المدينتين كلتاهما عبادات هائلة لأفروديت، إذ أن معبد أفروديت الموجود في قبرص قديم يرجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي أنه قبل وقت طويل من حياة الشاعر هسيود، وكما قام الشاعر باستخدام أحد الكلمات اليونانية في شرح لغز اسم أفروديت، فإنه عمل كذلك على استخدام التفاصيل الجغرافية في شرح سبب عبادتها في هاتين المدينتين.

وفي قصة ثانية تحكي عن كيفية ولادة أفروديت قيل أنها كانت ابنة زيوس، و(زيوس) يكون حفيد أورانوس وابن كرونوس، وقد قام زيوس بإطاحة أبيه حتى يكون الحاكم الخاص بالسماء، وفي تلك القصة تكون والدة أفروديت هي إلهة تُعرف باسم (ديون).

وولادة أفروديت من البحر (ربما الأكثر شهرة يصور على قاعدة العرش من تمثال زيوس الكبير في أولمبيا) وحكم باريس كانت مواضيع شعبية في الفن اليوناني القديم. وغالبا ما يتم تحديد الآلهة مع واحد أو أكثر من ما يلي: مرآة، تفاحة، إكليل من اليرتل، طائر أو حمامة مقدسة، صولجان، وزهرة. وفي بعض الأحيان كانت تُصور وهي تركب بجعة أو أوزة.

وعادة ما كانت تُجسد مكسُوّه في الفن القديم والكلاسيكي ، حيث ترتدي حزامًا مطرزًا بشكل متقن عبر صدرها يحمل قواها السحرية من الحب والرغبة والإغراء. وفي وقت لاحق فقط (من القرن الرابع قبل الميلاد) تم تصويرها عارية أو شبه عارية. وقد استمرت قصة أفروديت في

إثارة اهتمام الفنانين، خاصة خلال عصر النهضة، وربما تم تجسيدها بشكل أكثر شهرة في لوحة ساندرو بوتيتشيلي ١٤٨٦ م (ولادة الزهرة)، والتي هي الآن في معرض أوفيزي في فلورنسا.

كان يُعتقد أن أفروديت ولدت بالقرب من قبرص، وكانت تُقدس بشكل خاص في بافوس في الجزيرة – وهو موقع جغرافي يلمح إلى أصولها الشرقية كإلهة للخصوبة وتطور محتمل من الإلهة الفينيقية أستارت أو إينانا الشرقية الأدنى (عشتار). وقد شهدت المنطقتان في اليونان والشرق الأدنى تبادلًا ثقافيًا مكثفًا قبل العصر العتيق في القرن الثامن قبل الميلاد، وربما كان من المهم أن المؤرخ اليوناني هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد ذكر أن أقدم موقع عبادة لأفروديت كان في أسكالون في سوريا. ومن الممكن أيضًا أن الإلهة مستمدة من إلهة قبرصية محلية تمامًا. ويتجلى الارتباط القوي مع الجزيرة في اسمها الشائع، سيبريس، ويعني قبرص.

وفي الميثولوجيا، تُعتبر أفروديت مسؤولة جزئيًا عن حرب طروادة، حيث في حفل زفاف بيليوس وثيتيس، قدم إريس (إلهة الصراع) تفاحة ذهبية لأجمل إلهة، وقد تنافست هيرا وأثينا وأفروديت على هذا الشرف، وعين زيوس أمير طروادة باريس كقاض. وللتأثير على قراره، وعدته أثينا بالقوة وعدم القهر، وعرضت هيرا عليه سيادة مناطق آسيا وأوروبا، وعرضت أفروديت أجمل امرأة في العالم. واختار باريس أفروديت وفاز بذلك بهيلين. ومع ذلك، كانت بالفعل هيلين زوجة مينيلوس (ملك سبارتا)، لذلك فإن اختطاف باريس لهيلين دفع ملك سبارتا للحصول على مساعدة أخيه أجاممنون وإرسال بعثة إلى تروي لاستعادة هيلين.

في حين يرى مؤرخون عرب أن اللات عند العرب هي ذاتها أفروديت عند الإغريق وفينوس عند الرومان وعنها حملت رمز الزهرة واسم نينورتا، وعشتار عند البابليين، وإنانا عند السومريين، وكلهن آلهات الخصوبة والحب والجنس.

ومن الدلائل التي ترمز إلى مماثلة اللات لأفروديت الإغريقية وفينوس الرومانية هي العملة التي استخدمها الملك التدمري وهب اللات "هبة اللات" بن أذينة وزنوبيا الذي عرف عند الإغريق باسم أنينودوريوس، وعند الرومان باسم فبالاتوس؛ تحوير صوتي عن اسمه الأصلي.

وقد عمد الملك "وهب اللات" إلى استخدام عملة خاصة حملت شعار النجمة أو الشمس كرمز لفينوس الرومانية التي تقابل أفروديت عند الإغريق، وقد ارتبطت الشمس عند العرب آنذاك بالصنم الأنثى الشهيرة اللات كما روى المستشرقون..كما فسّر المؤرخ رنيه دينيسو أن اللات ارتبطت بكوكب الزهرة، أي فينوس الرومانية وهي ذاتها أفروديت.

وقد ذكر هيرودوت اللات فقال : إن العرب كانوا يعبدون ديونيسوس وأفروديت، وسميا عندهم "أوراتالت" و"الليلات" أي اللات. وقال أن اللات كانت تعرف باسم "أليتا" وهي الزهرة السماوية، أي فينوس الرومانية. كما قال بروكوبيوس أن اللات؛ وهي أفروديت، كناية عن القمر عند العرب كما عرّفها بعض المستشرقين، لذلك يعد القمر أحد رموزها، إضافة للشمس والصيف. ومن أسمائها أيضاً إيليتيا وإيلينا وهي مؤنث إيل وتعني الرب، وميليثيا المعينة وتعني الخصب وهي مؤنث أتون.

وقد عبد العرب قبل الإسلام عدداً كبيراً من الأصنام، لعلّ أشهرها هي اللات والعزّى والمناة ،والتي يقال أن من أحضرها إلى الحجاز هو عمرو بن لحي الذي أتى بها من بلاد الشام أثناء تجارته.

وتعزى تسمية اللات كما عرّفها بعض المستشرقين إلى Alahat وال"لاهات" وهي المؤنت من كلمة الله، تم إدغامها فيما بعد باستخدام التاء لتصبح الليلات، ثم أصبحت أخيراً "اللات" عند العرب من أهل الحجاز، على غرار تحول كلمة "إيل" إلى اللا لاه قبل أن تدعم وتصبح الله. كما عدّت رمزاً لفصل الصيف "ليلاتو" فقيل عنها "إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعُزَى لحر تهامة".

كما روى بعض المؤرخين أن اهتمام العرب قبل ظهور الإسلام بالأصنام الثلاث يعود إلى تقديسهم للكواكب، لاعتقادهم أن للكواكب أثر كبير على الحياة من مناخ وحروب وصلح وخصوبة، تماماً كما آمن الرومان وبالطريقة ذاتها التي قدسوا بها الكواكب. وقد رمزت اللات إلى كوكب الزهرة، وهو نفسه الكوكب المكرّس للإلهة فينوس عند الرومان، ما يدل على تماثل الروايتين العربية والرومانية، إضافة إلى الإغريقية كون فينوس هي ذاتها أفروديت عند الإغريق.

خالد عوض

القسم الأول

كرايزيس

كانت مستلقية على الفراش، وصدرها إلى الحشيات اللينة الناعمة، وقد باعدت ما بين ساقيها، واعتمدت إحدى وجنتيها على إحدى راحتيها، بينما أمسكت باليد الأخرى دبوساً ذهبياً طويلاً، راحت تثقب به وسادة من الحرير الأخضر، ثقوباً منتظمة في أوضاع هندسية. وكانت جدائل شعرها الذهبي الداكن تنساب في رفق، فتلف جسدها في غلالة متألقة ناعمة، حملت غواني الإسكندرية على أن يطلقوا على صاحبتها اسم "كرايزيس".

ولقد أحبت الاسم، كما أحبه الشبان الذين كانوا يترددون عليها، واشتقوا لها منه اسما يدللونها به فدعوها "كرايزي" كما كانت "أفروديت" تدعى في الأشعار والقصائد التي كانوا يتركونها مع باقات الورد عند بابها كل صباح.. وما كانت بالمؤمنة بأفروديت، ولكنها كانت تشعر بالغبطة أن يساوونها بالآلهة المعبودة، حتى إنها كانت تقصد هيكلها في بعض الأحايين لتقدم إليها– كما تقدم لصديقة من صديقاتها– العطور والأقنعة الزرقاء التي كانت تستدل على وجه تمثالها.

ولدت على ضفاف بحيرة "الناصرة" – جينيساريت– في بلد موفور الظل، مشرق الشمس، مزدهر بالورد والرياحين، وكانت أمها تنتظر في الأمسيات مقدم التجار والمسافرين، في الطريق المفضية إلى أورشليم، تعرض عليهم جسدها، ولكنها كانت رغم ذلك موضع احترام القوم.

كان الكهنة لا يتجنبون دارها، لأنها كانت خيرة سخية. تدفع في إسراف ثمن القرابين.. بيد أن الشائعات لم تلبث أن تطايرت ترفرف حول سيرتها عندما تقدمت بها السن، إذ حملت. ولما كانت وحيدة في حياتها، فقد أثار حولها أقاويل أهل السوء، وقال رجل يرجم بالغيب إنها ستضع مولودة تحمل يوماً حول جيدها "ثروة شعب وإيمانه" ووضعت الطفلة فعلاً، ولكنها وإن لم تدر كيف تتحقق هذه النبوءة، أسمتها "سارة" أي "أميرة" باللغة العبرية فقطعت بذلك ألسنة الشر.. وأخمدت الفضائح التي أشيعت عنها.

ولم تعرف "كرايزيس" قط شيئاً عن النبوءة، إذ حذر العراف أمها من الفضاء إليها بها.. لا ولم تك تعرف شيئاً عن مستقبلها الذي طالما فكرت فيه.. بل، وما كانت لتذكر عن طفولتها إلا القليل الذي كانت تعاف الحديث عنه.. كان كل ما تبقى في نفسها من أثر واضح، ذلك الخوف والبرم، اللذان كانت تبعثهما، في كل يوم من أيام صباها وحداثتها الرقابة القاسية التي كانت أمها تفرضها عليها.. فلقد كانت تعمد إذا ما حانت الساعة التي تخرج فيها إلى طريق أورشليم لتصيد الرحالة والتجار، إلى إغلاق حجرتها الصغيرة دونها فتظل حبيسة بها، ساعات طوالاً، لا منفذ يصلها بالعالم الخارجي سوى نافذة مستديرة، تشرف على البحيرة اللازوردية. والحقول المزدهرة، والسماء الصافية، ونسيم "أرض الجليل" العليل.. فكانت ترقب الفتيات الصغيرات وهن يغتسلن في البحيرة، حيث يلتقطن اللآلئ الحمراء، أو وهن يتسابقن على الجبال، يجمعن الزهور وينسقن أكاليل الغار.

وكانت في الثانية عشرة عندما فرت من سجنها لتتبع رهطاً من الفرسان الشبان– في طريقهم إلى "صور" حيث يتاجرون في الماج– قابلوها

صدفة.. بجانب البئر القائمة خارج المدينة.. إنها لتذكر أنهم كانوا يزينون ذيول خيلهم بكثير من الجدائل العديدة الألوان.. كما تذكر كيف حملوها وهي مبهوتة شاحبة لفرط الفرح، حتى وقفت بهم الخيل أخيراً في ساعة متأخرة من الليل، الذي كان مقمراً زاهي ألسناء.

وما كانت لتنسى أبد العمر دخولها إلى "صور" على رأس الركب، ممتطية فرسا يحمل سلالاً، وقد أمسكت بقبضتيها عفرته، تهز ساقيها العاريتين الفاتنتين لنسوة المدينة، مزهوة إذ غدت بدورها امرأة مثلهن.. وفي نفس المساء، رحل تجار العاج إلى مصر، فرافقتهم إلى سوق الإسكندرية وهناك خلفوها بعد شهرين في بيت أبيض صغير، ذي شرفة وأعمدة رشيقة، بين الوسائد الوثيرة والرياش الناعمة، وصحبة مرآة نحاسية، وجارية هندية مليحة، برعت في ترجيل شعور الغانيات.

وإذ كانت تسكن في أقصى الحي الشرقي من المدينة. فإنها لم تكن تصادف الزمن طويل سوى السياح والتجار. كما كانت أمها من قبل. فقد كان الشبان الإغريقيون يزدرون هذا الحي وساكناته. وكانت لا ترى الزائر لغير مرة واحدة تم تهجره سراعاً قبل أن يعلق به قلبها، ولكن صيتها ما لبث رغم ذلك أن ذاع، حتى لقد كان أصحاب القوافل يبيعون تجارتهم بأبخس الأثمان، متحملين الخسارة مرتضين الإفلاس، ليقضوا بالقرب منها بضع ليال، بينما كانت من ناحيتها، تبتاع بما يهبونها حلياً وفراشاً وثيراً وعطوراً نادرة، وثياباً موشاة، وجاريات من الرقيق.

وكان أن حذقت كثيراً من اللغات الأجنبية، وأن عرفت القصص

الذائعة في كل البلاد، فقد قص عليها الاشوريون حب دوزى وعشتار، وروى لها الفينيقيون عن أدونيس وعشتروت، وحدثتها الفتيات الاغريقيات عن ايفيس، وعلمتها جاريتها الهندية خلال سبع سنوات، كل ما ابتدعته غواني "باليبوترا" من فنون الحب، فغدت خبيرة بأساليب الغرام والغواية. وراحت ترى الحب فنا كالموسيقى، وتعد نفسها– بحق– متفننة بارعة، تفوق "بلانجو" موسيقي المعبد.

وهكذا عاشت سبع سنوات، دون أن تحلم بحياة أكثر سعادة أو رغد، حتى إذا أشرفت على العشرين، وتحولت من فتاة إلى امرأة، استيقظ في نفسها الطموح، وثارت النزعات، ففي ذلك الصباح، وقد استيقظت من نوم عميق بعد الظهر بساعتين، ظلت في فراشها، تثقب الوسادة بدبوسها الذهبي وهي مستغرقة في التفكير، وفجأة، صاحت حالاً!.. حالاً!..

كانت حالاً جاريتها الهندية، التي تدعي في الأصل "جالاً نتشتشاندر آبشابالا" أي "متحولة كصورة القمر على صفحة الماء". ونفذت الجارية إلى الحجرة، فوقفت لدى الباب وإذ ذاك سألتها سيدتها!

– جالا، من الذي قدم بالأمس؟ إنني لم أنتبه إليه، فقد كنت متعبة، وكان النعاس يغالبني طيلة الوقت، ومتى رحل؟.. مبكراً.. وماذا قال؟.. أوعد أن يعود ثانية؟ أو لم يأت أحد بعده؟.. حسناً، احضري أساوري، وصدعت الجارية بما أمرت، ولكن كرايزيس لم تعبأ حتى بإلقاء نظرة عليها، بل رفعت ذراعيها في ملل قائلة:

– آه ياجالا "كم أتوق إلى مغامرات جديدة! ما كانت الأيام فيما

مضى تمر متشابهة كما هي الآن.. فقديماً كانت الآلهة يهبطون إلى الأرض ليعشقوا نساءها الغانيات.. آه ترى أين هم الآن؟ وأي صلاة تلين قلوبهم كي يهبطوا من سماواتهم؟ وإذا كانت الآلهة لا تهبط إلى الأرض في هذا الزمن يا جالا، فهل ترينني أموت قبل أن أرى الرجل الذي يشبع بالمخاطرات حياتي؟ يلوح لي إنني سأجد المتعة– إذا هام بي رجل– في أن أعذبه حتى يموت لفرط تباريح الهوى.. إن هؤلاء الذين يترددون على بيتي لا يستحقون أن أذرف عليهم دمعة واحدة، ولكن الذنب ذنبي، فأنا التي أدعوهم، وهم لهذا لا يهيمون بي.. ألا دعيني وحدي.. سأرتدي ملابسي وأهيئ زينتي بنفسي.. ولسوف أخرج بمفردي.. ولن أعود، أذهبي.. أغربي عني!

وقامت تخطر في دلال إلى حمامها، فمضت تتأمل صورتها منعكسة على صفحة الماء.. وخيل إليها إنها صدفة كبيرة من أصداف البحر، على صخرة من صخور اللآلئ..كانت الساعة التي تقضيها في المغسل، هي الساعة التي تتفرغ خلالها لتعبد نفسها، وتزجي صلوات المديح لجسدها.. كم كان يحلو لها أن تتحسس هذا الجسد الناعم اللدن، وأن تعبث بشعرها الذهبي الغزير، وهي تضحك في غبطة كطفلة صغيرة!

وعندما بدأ الليل يزجي سدوله، غادرت المغسل، فراحت الجارية تجفف جسدها، وترجل شعرها وتعقصه، وتطيب أعضاءها بالعطور النافذة العبير،حتى إذا فرغت، راحت كرايزيس تتأمل صورتها في مرآتها النحاسية، وعلى وجهها أسارير الرضا، وابتسامة الزهو والخيلاء.. ثم هتفت بخادمها الهندية:

– جالا.. غنيني...

واستوت في مقعد رخامي، وقد استقرت يداها على صدرها، وأومضت في نحرها أظفارها وقد طليت بلون أحمر فبدت كعقد من العقيق، وجلست الجارية عند قدميها، تغنيها أغنية من نظمها، راحت تصف خلالها جمال سيدتها واستخف الطرب كرايزيس فراحت تجيبها.. قالت الجارية أن عيني سيدتها كزهور الماء الممعنة في الورقة الطافية على سطح الغدير.. فأجابتها أن عينيها كبحيرتين عميقتين استلقتا في ظل أغصان وارفة هي أهدابها الطويلة.

وهكذا مضتا تتجاوبان وقد انتشت كرايزيس بخمر الإطراء لجسدها الذي تعبده كأي عاشق غريب، ألقته رياح الأقدار لينعم ليلة بأحضانها الدافئة.

وزحف الليل شيئاً فشيئاً، ولكن القمر كان مكتملاً زاهي السنا.. وتأملت كرايزيس جسدها العاري في غمرة الضوء الفضي الذي كانت تشوبه زرقة حبيبة ثم هبت واقفة فجأة وهي تقول:

– جالاً.. فيم نفكر؟. لقد حل الليل ولم أخرج بعد لن أجد على رصفة الميناء غير البحارة النائمين. ولكن خبريني يا جالا.. أنا جميلة ".. أأنا الليلة أجمل مني في أية ليلة سابقة؟ ألا تعرفين أنني أجمل امرأة في الإسكندرية من ذا الذي لا يتبعني كالكلب الذليل إذا ما رميته بسهم من لحظي الفتاك؟ أليس في مقدوري أن أجعل ممن يعجبني عبداً رقيقاً خاضعاً؟

وأحاطت ذراعيها بثعبانين من الفضة الخالصة، ثم انتعلت نعلين خفيفين، واتشحت بغلالة من الكتان الأصفر، ثبتتها إلى وسطها بحزام من

أحزمة العذارى، ووضعت في أذنها حلقين دائريين، وفي أصابعها عدداً من الخواتم الذهبية وفي عنقها قلادة صيغت حباتها من صور ذهبية رائعة، وراحت تتأمل نفسها لحظة طويلة، وقد انسدلت غلالتها الزاهية اللون حول جسدها فأضفت عليها بهاء وفتنة وانحسر أحد أطرافها عن ذراع عارية بضة، تجرى فيها دماء الشباب الحارة.

ووقفت برهة لدى الباب ممسكة بمروحة من ريش الطير في إغراء. ثم سارت متهادية في الطرقات الخالية المغمورة بضوء القمر، يتبعها ظل متراقص.. ونظرات جاريتها!

عند رصيف الميناء

على اللسان الصخري الممتد– من إحدى نواحي شاطئ الإسكندرية– في البحر، وقفت فتاة تغني، بينما جلست أخريان إلى جانبيها تعزفان على الناي حتى إذا أتت المغنية على نهاية أغنيتها، بسطت راحتها للمارة الذين أحاطوا بها وبزميلتيها فتلقت ما جادوا به من نفحات وقطع نقدية.

وما لبث حشد المارة أن انصرف شيئاً فشيئاً، لينطلق وقد اتخذ أفراده من مشاهدة بعضهم بعضاً تسرية. كان بينهم البحارة الذين راحوا يعملون في كد لنقل البضائع إلى رصيف الميناء، والفتيات اللاتي يبعن الفاكهة للمارة وقد علقت سلالهن بأذرعتهن، والمتسولون والسقاة. بيد أن ثمة فريقاً آخر كان أكثر استرعاء للأعين في ساعة الغروب فقد كانت تنتشر على الرصفة في تلك الساعة غانيات الإسكندرية، رائحات غاديات، وفي أثرهن تنطلق عبارات الغزل وتحيات الهوى. كن مجموعة متباينة. بينهن المعروفات لكل رجل، والنكرات المجهولات. الرافلات في الحرير وقد توارت أقدامهن في نعال رشيقة، والتعيسات شبه العاريات، يسرن حافيات الأقدام. وما كانت الفقيرات منهن بأقل جمالاً وفتنة من المبسوطات الحال، ولكنهن كن أقل حظاً. وكانت تلك الليلة هي الأمسية السابقة لعين أفروديت، فكانت كل غانية في حل من أن تلبس الغلالة التي تبديها في أبهى صورها، بل وكانت منهن من فضلت الظهور دون غلالة ما، ولكن هؤلاء ما كن ليلفتن

إليهن نظراً، إذ كان الرجال يدركون أنهن ماكن ليظهرن عاريات لو أن جسد كل حمل ما يشوهه ويبديه مبعثاً لسخريتهم.

وشقت إحدى الغانيات طريقها عنوة بين القوم لتلحق بصديقة لها، وهي تناديها، ثم سألتها:

– ترايفيرا.. ترايفيرا.. أمدعوة أنت؟

– أين يا سيسو؟

– في مأدبة باكيس.. لما علمت؟... إنها تقيم مادبة كبرى يا عزيزتي، احتفاء بعزمها على عتق أجمل جارياتها... آفروديسيا.

– أحقاً عزمت على عتقها؟ أو فطنت أخيراً إلى أن أحداً لا يزورها إلا من أجل جاريتها؟

– ما أظنها فطنت إلى شيء من هذا، ولكن شيريس العجوز– ضابط المرفأ– أصيب بلوثة حملته على أن يعرض على باكيس عشرة ميئات ثمناً الجارية، فلما رفضت، عرض عشرين، ولكنها ظلت على رفضها.

– إنها مجنونة.

– وماذا كنت تريدين أن تفعل؟ لقد كانت كل رغبتها أن تكون لها جارية معتوقة، كما إنها كانت محقة في رفضها إذ أن شيريس سيعرض خمسة وثلاثين مينا، وتحرر الفتاة لقاء هذا الثمن..

– خمسة وثلاثون مينا .. ثلاثة آلاف وخمسمائة دراخماً ثمناً لجارية سوداء!

– إن أباها أبيض وإن كانت أمها زنجية، لقد أصرت باكيس أن لا تبيعها

بأقل من هذا الثمن، ولن يتردد شيريس، فهو متيم كلف بها، إنه غير مدعو إلى المأدبة، ولكن افروديسيا سترقص فيها الرقصة الأخيرة، ولن تسلم إلى شيريس إلا في اليوم التالي، كم أخشى أن تكون مجهدة مرهقة!

– لا ترثي لها، فسوف تجد الراحة في أحضانه، إنني أعرفه يا سيسو وكثيراً ما كنت أتأمله وهو نائم.

وضحكتا، ثم راحت كل تطري أناقة الأخرى وروعة زينتها، وفجأة سمعتا صوتاً يهتف:

– سيسو!.. تعالي وترايفيرا إذا لم يكن لديكما ما يشغلكما فإنني ذاهبة إلى سور "سيراميك" لاري ما إذا كان اسمي مكتوباً على جداره.

– موساريون... من أين قدمت يا صغيرتي؟

– من فاروس، ليس من مخلوق هناك

وانطلقت ثلاثتهن، وقد عدن إلى الحديث عن مادبة باكس، فصاحت موساريون:

– آه، مادبة باكيس!.. أتذكرين يا ترايفيرا وليمتها السابقة وما قيل خلالها عن كرايزيس؟

– ليس من الذوق أن تعيديه، فإن سيسو صديقة لها .

فصاحت سيسو:

– لا حرج عليكما، ففي وسع الناس أن يتكلموا ما شاء لهم الكلام،

ولكن، ليس ثمة من ينكر إنها إذا فكرت يوماً في أن تهجر الحي الذي تعيش فيه، فإن عشاقنا سوف يتبعونها هاجرين إيانا، صدقاني! لست بالمغالية حين أقول أن ليس منا من تدانيها جمالاً.

ووصلت الغانيات الثلاث إلى جدار سيراميك الأبيض اللون، الذي انتشرت عليه عرضا وطولاً، كلمات الحب ومواعيد اللقاءات، فقد كانت تقاليد طلاب الهوى، تبيح لكل عاشق يريد أن يقدم نفسه لامرأة أعجبته واشتهاها، أن يكتب على السور اسمها فوق اسمه، ثم الأجر الذي يستطيع دفعه إليها. فإذا قبل العرض، وجد غانيته التي ينشدها واقفة في المكان الذي سجل اسميهما فيه، تنتظره.

وصاحت ترايفيرا ضاحكة:

– انظري يا سيسو.. أي ساحر لعين كتب هذا؟

وأشارت إلى حروف سوداء كبيرة، تألفت منها السطور الثلاثة التالية:

باكيس

تيرسايتس

أوبلي[1]

وهمت سيسوان أن تنطلق في الهزء. لولا أن وقع نظرها على عرض مقدم إليها لقاء "مينا"، فبهتت لضخامته التي لم تعهدها من طلاب المتعة

(1)الأوبلى، والدراخما، والمينا، أنواع من النقود الأغريقية كانت منتشرة في ذلك الحين في الإسكندرية وفي مصر بأسرها.

لديها، وقررت أن تنتظر.. ووجدت موساريون بدورها عرضاً آخر يغريها. فتحولت ترايفيرا عائدة وحدها إلى الرصفة. كان الأصيل إذ ذاك قد اكتهل وانصرف معظم القوم ومع ذلك، فقد كانت المغنية وعازفتا الناي مايزلن في غناء وعزف.. وصادفت ترايفيرا في طريقها شخصاً استرعى انتباهها لضخامة جسمه وغرابة منبسه.. فتحككت به وسرعان ما اشتبكت معه في حديث عرفت منه إنه قادم من "كبيراً" ليبيع قمحه لقاء اثنين وخمسين مينا، ثم يقفل راجعاً إلى بلده. وود التاجر الغريب لو يعرف البارزين من أول رواد الرصفة الذين لم يعودوا بعد إلى المدينة من نزهتهم على الشاطئ.

وصاحت ترايفيرا مشيرة إلى شخص مر بهما:

– هاك نوكريتس.

– ومن يكون؟ وما مهنته؟

– إنه فيلسوف يدعو إلى التزام الصمت في رسالته.. ولكن، ها هو ذا فليدوميس.

– أهو من علماء الفلك؟

– لا، بل شاعر لاتيني يكتبه قصائده بالإغريقية

– إذن فهو من الإعداء يا صغيرتي. وددت لو لم اره.

وإذ ذاك، سرت بين الموجودين همهمة تردد فيها اسم "ديمتريوس"، فاعتلت برايفيرا صخرة على مقربة منها، وقالت لرفيقها:

– ها هو ذا ديمتريوس، يا من ترغب في رؤية المعروفين ذائعي الصيت..

– ديمتريوس.. عشيق الملكة.. أصحيح هذا؟

– أجل.. إنك سعيد الحظ، فهو لا يخرج قط إلى الطرقات، وما رأيته مرة على الرصفة مذ قدمت إلى الإسكندرية.. "اترام" إنه ذلك الذي يعتمد على سياج الشاطئ الحديدي، يرقب العمال وهم ينقلون البضائع بين الرصيف والسفن.

– ولكنني أرى رجلين!

– هو منهما ذلك المسربل في ملابس زرقاء.. إنه المثال الذي عرضت عليه الملكة نفسها نموذجاً يحتذيه في صنع تمثال لأفروديت يقام في المعبد؟

– يقولون إنه عشيق المملكة، وإنه.. سيد مصر

– وإنه لجميل كأبولو

– ها هو ذا يلتفت.. كم أنا سعيد إذ رأيته، بعد ما سمعت عنه.. يخيل إلي أن أية امرأة لا تستطيع لفتنته صداً أو مقاومة.. إن له مغامرات غرامية يتحدث الجميع بها، ولكن.. كيف يكون شعور الملكة لو سمعت بها؟

– إنها تعرفها يا صديقي، ولكن حبها أعظم من أن يسمح لها أن تلومه أو تعتب عليه، فإنها لتخشى أن تغضبه فيرحل إلى روديس.. إنه لا يقل عنها قوة، إذ إنها هي التي تريده وتشتهيه.

– إنه لا يلوح سعيداً.. فما الذي يؤسيه؟ لو أنني كنت في مكانته لما

وجدت من هو أسعد مني.. آه لو إنني كنت له.. لليلة واحدة!.

ونظرت المرأة إلى الرجل الذي كان فارس أحلام كل غادات الإسكندرية، ولكنه لم يك ينظر إلا.. بعيداً، إلى أفق مجهول ناء.. وقد أرهف السمع إلى عازفتي الناي اللتين لم تلبثها أن ألقتا بناييهما وراء ظهريهما، بينما توسطتهما المغنية، وأحاطت عنق كل بإحدى ذراعيها.. وانطلقن إلى المدينة.

وإذ أمعنت جيوش الظلام في تقدمها، انصرفت من الغانيات من كن باقيات وهن يرمين ديمتريوس بلحاظهن.. وألقت عليه أخيرتهن زهرة وهي تبتسم.. ولكنه لم يأبه لاحداهن.. وأسعده أن تسود السكينة أرصفة الميناء.

ديمتريوس

ظل ديمتريوس وحيداً على الرصفة المهجورة، متكئاً على السور، ينصت إلى هدير البحر، وحفيف النسيم، وقد تبدت له المدينة محوطة بغلالة من الأضواء المنبعثة من نوافذ دورها. وتلفت الشاب حوله فرأى آثار جلسة عازفتي الناي على الأرض، فحاول أن يشغل باله في تذكر ملامحهما. وفجأة انعكس خيط من أشعة القمر، على قطعة من العاج صغيرة الحجم كانت ملقاة عند قدمه. فاسترعى بريقها نظرة، وانحنى يلتقطها، فإذا هي صفحة صغيرة رقيقة، حفرت عليها ثلاث كلمات: "ميرتيس تحب رودوكليا".

وتساءل في نفسه: لأي منهما هذه الرقعة العاجية؟ وفكر في أن يتبعهما، ليردها إلى صاحبتها، ولكنه فطن إلى أن العثور عليهما.. بعد إذ بعدتا، أمر عسير، وما لبثت أن تحول إلى البحر، فألقى إليه بالرقعة فهوت مرفرفة كطائر صغير. ثم ارتطمت بصفحة الماء فنبهه صوت ارتطامها إلى السكون الشامل الذي كان يلف الميناء. وأعاد إليه الأفكار التي كان يفر منها.

كان يضيق بحياته، حتى لقد تعود أن يخلف بيته مع مقدم الليل فلا يعود إليه إلا مع مطلع الفجر، سعيداً بأن لا يرى من المدينة غير شبحها في ظلمة الليل. وقنع بهذا شهوراً عديدة، لم ير خلالها شمس الظهيرة.

كان يشعر بالملل إذ كانت الملكة ترهقه بإمعانها في اضطراره إلى اصطناع الحب لها إرضاء لقلبها الجامح، ونزواتها المتقدة. وكاد في هذه الليلة ينكر على نفسه ما ملأها من فرح وزهو، حين أمرت الملكة منذ ثلاث سنوات، متأثرة بما سمعته من أقاويل عن جماله أكثر من تأثرها بما ذاع عن نبوغه، باستدعائه إلى القصر الملكي. فاستقبل استقبالاً رائعاً. ونفخ الحراس في أبواقهم الفضية، إيذانا بمقدمه.

وتلقته الملكة منفردة في جناحها الخاص المكون من ثلاث حجرات صغيرة، وقد اضطجعت على أريكة، وكأنها غارقة في موجة من الحرير الأخضر، انعكس لونه على الماسات التي كانت تنبث في شعرها، وهي في ثوب شفاف طرز في دقة وفن عجيبين.

وركع ديمتريوس في احترام، فتناول قدمها الصغيرة وقبلها، وكأنها درة ثمينة جميلة.. فنهضت من مكانها، وفي بساطة الجارية التي تقف نموذجاً لسيدها المثال، نزعت ثيابها وكل حليها، ووقفت باسطة راحتيها إزاء كتفيها، رافعة رأسها وقد أخذ حلقاها المرجانيان الغاليان يتأرجحان إلى جانبي وجنتيها..كانت ابنة أحد ملوك البطالسة، وقد انحدرت من أسرة من أمراء سوريا من سلالة الآلهة "عشتروت" التي كان الإغريق يدعونها "أفرودويت".. وكان ديمتريوس يعرف ذلك، ويعلم إنها دائمة الفخر بنسبها الأوليمبي، ولذلك، لم يعجب حين رآها تقف دون حراك لتقول:

– أنا عشتروت.. ألا خذ المرمر وانتض "ازميلك" وانحت تمثالاً لي يعرض على أهل مصر.. إنني أريد أن يعبدوا صورتي.

وحدق ديمتريوس فيها، وقد أدرك الشعور الذي يجتاح نفسها، فقال:

– إنني أول عابد لها.

ولم تغضب الملكة لجراته، ولكنها سألته وهي تتراجع، ثم تبتسم:

– أتظن نفسك كأدونيس، كفئاً لأن تمس الآلهة .. إنك محق!

من أجل هذا غدا واسع السلطة، وانفض أصدقاؤه من حوله، ولكن قلوب النساء كانت تحوم محيطة إياه بسياج منها.. كانت جواري القصر إذا رأيته يمر في الأروقة والردهات يقفن جامدات مبهوتات، خافقات القلوب.. وإذا أوى إلى مضجع الملكة، وقفن لدى الباب يتسمعن حديثه.. وكانت ثنايا عباءته تحمل الكثير من أوراق البردي تلقيها عليه أجمل غادات الإسكندرية إذا رؤي يعبر الطرقات، وقد كتبن أسماءهن فيها، وكل مطمعهن أن تقع عيناه عليها.

وعندما أقيم تمثال أفروديت الذي نحته، في المعبد، ازدحمت مقصورة الهيكل طيلة الليل بجموع العابدات يقرأن اسمه المحفور على الصخر، ويقدمن القرابين.. وما لبث بيته أن غص بالهدايا التي راح يرفضها عندما أدرك الباعث الذي حداً بأصحابها إلى تقديمها إليه، حتى جارياته كلفن به فاضطر إلى الأمر بجلدهن وبيعهن.. جل عبيده من الرجال، أغرتهم هدايا المجهولات ففتحوا لهن أبواب بيته خلسة، فرحن يسرقن من أدوات زينته ما تحتفظ به كل، كتذكار لفارس الأحلام الذي عبث بقلوب الغواني ولبهن.. بل إنهن ما كن ليتورعن عن الاحتفاظ ببذور الفاكهة التي يلفظها.. أو الثري الذي تطأه قدماه.

وإلى جانب ما كان في هذا كله من خطر يهدد إحساساته المرهفة، ورقة شعوره ونقاء نفسه، فإنه كان قد بلغ السن التي لابد فيها لكل شاب من أن يفصل بين مطالب الروح، وحاجات الجسد، فلا يخلط هذه بتلك.

وكان تمثال أفروديت وحي الهدى لديه، فقد نقل ملامح الملكة وجمالها إلى الرخام، ثم راح يعمل فيها بيد التنسيق والتهذيب، باثاً فيها كل روعة المثل العليا للبهاء والفتنة، ومنذ ذاك اليوم خال أن أية امرأة على وجه البسيطة لن يمكن أن تسمو إلى هذا المستوى الذي ابتدعه خياله، فأصبح التمثال رغبته ومشتهاه، ولم يعد من ذاك الحين يعبد سواه، وراح يتخيل ما تكون عليه الآلهة أو أن الحياة دبت في تمثالها، مقصياً عن أفكاره كل الماديات، الغانية.

ولم تلبث الملكة– حين رآها بعد ذلك– أن تبدت له مجردة من كل ما كان قد بهر عينيه من سحرها، وتراءت له مخالفة تماماً لتلك التي ابتدعها، وإن شابهتها في مظهرها، وكأنها دخيلة تبدو أمامه في هيئة الحبيبة التي هام بها ولقد عرفت المغرمات به هذا، وأفضى به هذا، آخر الأمر، إلى أن يمل الملكة ويسأمها، فقد أدت زياراته اليومية لبيرنيس– الملكة– إنه قد كف عن تعشقها.. وتضاعف عدد الهائمات حوله.. ولكنه ما كان يشعر لهن بوجود.. فقد كان التغير الذي ينشده من نوع آخر.. لم يكن يود أن يستبدل بامرأة.. امرأة أخرى كما خيل إليهن..

ولكن من النادر أن يستطيع الرجل في الفترة التي تعقب هجرانه لعشيقة وتسبق عثوره على غيرها.. أن يقاوم مغريات الرذيلة، وأن يحجب

عن عينيه بريق الفساد والغواية..وكان هذا ما أصاب ديمتريوس.. فقد اعتاد إذا ضايقه الواجب المفروض عليه– واجب الذهاب إلى القصر– أكثر من ذي قبل.. أن يقصد في الليل الغانيات اللاتي كن يسكن الحدائق المحيطة بمعبد أفروديت.. وكن لا يعرفنه.. وكان لا يجد منهن دموعاً أو صراخاً.. ولا إرهاقاً واضطراراً إلى اصطناع الحب ونظم أهازيج الهون.. بل كان في هدأة الليل.. وعذوبة النسيم المحمل بشذى ورود الحديقة والدعة التي ترفرف على تلك النسوة بعد ما يلقينه في نهارهن.

كل ذلك كان يبعث في نفسه راحة وأمناً، حتى إذا خلفهن، قصد إلى هيكل المعبودة، فيركع عند قدمي تمثالها العاري، الذي صب فيه خلاصة ما في نفسه من فن وأمان في الهوى، يصلي ويتعبد ويناجيها:

– "آه أيتها الأخت المقدسة.. آه ياسايتريا الرائعة، لقد كشفت عنك الحجب فأبرزتك لاعين البشر، ما هذا بتمثالك، بل هو أنت بنفسك الماثلة أمامي.. أنت الفكرة الخالدة. أنت الروح الأرضية لعشتروت التي خلقت النساء صورة منها".

وكان قلبه مفعماً بعبادتها في تلك الليلة، حين دلف إلى الشاطئ في الساعة التي بدأ فيها عقد المتنزهين ينفرط، وأخذ يستمع إلى أغنية عازفتي الناي الشجية.. كان قد اعتزم التطهر، والامتناع عن زيارة الغانيات، إذ رأي خلسة وعلى غير قصد.. إحداهن مع عشيقها في موقف أثار نفسه اشمئزازاً، تحت إحدى الشجيرات الوارفة.

وأخذت هدأة الليل وجمال نسماته يعملان في نفسه شيئاً فشيئاً..

ومضت تمر بخياله أشباح نسوة رشيقات جميلات، ليتخير بينهن تماثيل لثلاث من الوصيفات اعتزم أن ينحتها ليحوط بها تمثال الآلهة. وخيل إليه أنه يسمو عن العالم الذي يمقته، فأحس براحة للخلاص من الحب الذي يضطر إليه اضطراراً. وأسعده أن استطاع أن ينزه أفكاره عن الجسد، ليتعبد الفكرة والروح.

والتفت نحو أرصفة الميناء صدفة، فإذا بوميض قناع أصفر على وجه امرأة تخطر عن كثب، يأخذ ببصره.

عابرة طريق

اقتربت من الرصيف، وقد ألقت رأسها- في دلال- على إحدى كتفيها. وغمرها ضوء القمر، مرسلاً أمامها خيالاً يخفق مع خطواتها وتأملها ديمتريوس. فأدرك من ملبسها وحليها إنها غانية، فتحول مسرعاً كي يتفادى تحيتها..

وحاول أن يتحاشى النظر إليها، ولكن عينيه كانتا تتجهان على الرغم منه إليها. ثم رأى إنها لم تقف، ولم تهتم له، بل ولم تتظاهر بتسريح نظرها نحو البحر، أو برفع قناعها، أو بالاستغراق في التأمل والتفكير.. بل كانت تسير في بساطة متنزهة، لا تنشد غير النسيم العليل والوحدة، والحرية، والهدوء الصامت.

ووجد ديمتريوس نفسه يتبعها بنظراته وقد تولته دهشة وعجب.. بينما ظلت هي في سيرها، حتى جزيرة فاروس، فانطلقت بين صخور الشاطئ الجاثمة.

وفجأة، هرع خلفها، وكأنما أحس أنه قد أحب هذه المجهولة، في أزمان سحيقة.. ثم أمسك عن الجري، وقفل عائداً، وهو يرتجف غضباً، مستنكراً ضعفه.. وفكر في أن يهجر الرصفة، ولكنه لم يك قد تحكم في إرادته قط من قبل، إلا لكي يوجهها نحو متعه وملذاته، لذلك وجد قدميه قد تسمرتا بأرض الوصفة تأبيان انتقالاً.

وإذ وجد أن ليس بوسعه أن يمتنع عن التفكير فيها، راح ينتحل الأعذار لهذا التفكير، ويعزوه إلى إعجاب برئ تملكه بمشيتها التي تجسمت فيها العظمة والرشاقة.. وحدثته النفس بأنها خير من تصلح نموذجاً لأحد التماثيل الثلاثة التي كان يفكر فيها.. ولكنه فجأة، تحول ليجابه سيلاً من الأسئلة تدفق على ذهنه حول هذه المرأة.

ترى ماذا جاءت تفعل في الجزيرة في مثل هذه الساعة من الليل؟.. لماذا ولمن جاءت في هذا الوقت المتأخر؟.. لم لم تابه له، وواصلت سيرها رغم أنها رأته ولا بد وهو يجتاز الرصفة مبتعداً عن طريقها؟.. ثم ما الذي جعلها تبتعد هذه المسافة كلها عن راكوتيس؟ أتكون على موعد مع عاشق، شاء أن يحظى بعناقها على الصخور التي كانت الأمواج تعانقها في الوقت نفسه؟

وخطر له أن يستقصي خبرها، ولكنه لمحها تكر عائدة، في نفس الخطى الناعمة المتباطئة.. وقد سقطت أشعة القمر على وجهها والمروحة التي كانت تمسك بها..

كان لها نوع خاص من الجمال.. فلاح شعرها كسبيكتين من الذهب كثا غزيراً ينسدل على جبينها في تموجات، ويترامى إلى عنقها.. وبدأ أنفها دقيقاً بديعاً، يليه فم قرمزي صغير.. وتبدى جسدها رشيقاً ممشوق القوام، ناهد الصدر..

فلما أصبحت على قيد خطوات منه.. ألقت عليه نظرة.. أرسلت في جسده رجفة.. إذ رأى عينيها ساحرتين.. زرقاوين.. براقتين.. لم ير لهما في

السحر مثيلاً طيلة العمر، ولكنها عندما مرت به.. غضت بصرها غير آبهة وكاد يصيح وقد أرهقته مغالبة نفسه ومقاومة عواطفه.. وخشي أن لا يستطيع تمالك جأشه إذ رأى أن لا مناص من الرغبة الطاغية التي راحت تدفعه كي يحادثها.. وأخيراً.. ألقى عليها السلام، فردت عليه.. وتشجع فسألها عن مقصدها.. فأجابته:

– إنني عائدة

– وحيدة هكذا؟

– وحيدة هكذا..

وهمت أن تواصل سيرها.. وإذ ذاك خيل لديمتريوس إنه كان مخدوعاً حين ظن إنها غانية.. وتذكر أن زوجات علية القوم والموظفين كانوا يخرجون فيما مضى في تبرج بنات الهوى.. ينشدن الترويح عن أنفسهن والتسرية.. ففكر في أن هذه قد تكون من هاته النبيلات الشريفات فيسألها:

– أكنت تودين اللحاق بزوجك؟

فاستندت إلى سياج الشاطئ وأخذت تضحك.. فعض شفته.. فقال في تحرج:

– لم يعد شخص على الرصفة، فهو لابد قد عاد..

– ومن قال لك إنني أبحث عن أحد.. إنما كنت أتنزه وحيدة

– إذن.. فمن أين قدمت؟ فما أراك قد تحليت بهذه الحلى.. ولبست هذا الثوب الحريري إرضاء لنفسك فقط.

– أو كنت تريدني أن أسير عارية أو في رداء من الصوف كالجواري؟ إنما ألبس ما يبعث الرضا في نفسي..

– ليتك حملت مرآة فتأملت فيها عينيك.. ليستا كأعين بنات الإسكندرية! أتراك يهودية؟

– بل إنني جليلية..

– وما اسمك.. مريم.. أم نويعمة؟

– لن يتاح لك أن تعرف اسمي السوري.. فهو اسم ملكي لا تحمله فتاة هنا.. ولكن أصدقائي يدعونني كرايزيس .

ومد يده إلى ذراعها ولكنها صاحت هازئة:

– لا.. لا.. لم يعد الوقت ملائماً لمثل هذه المداعبات.. دعني أسرع بالعودة فما استيقظت إلا منذ ثلاث ساعات وأكاد أموت لفرط التعب.. لا تزعجني، ودعني أعود.. لو إنني شعرت إنك ستطيل من تأخيري لما وقفت.

فرفع يده إلى جبهته في حيرة الرجل الذي يتردد في الاختيار، ثم لم يلبث أن تمتم:

– أريني الطريق إلى بيتك.

فصاحت في لهجة المتعجبة المغضبة:

– لن أفعل!.. إنك لم تعن بتعرف ما إذا كان هذا يروق لي.. بأية لهجة آمرة تخاطبني!.. أظننتني جارية؟ هل تبعتني في الطرقات فلاحظت

الأبواب تفتح لاستقبالي؟.. هل أحصيت الرجال الذين يصبون إلى أن يلقوا من كرايزيس حباً؟

– أريني الطريق!

– لا، لن أريكه، ولتبق هنا أو لتذهب، ولكنك لن تأتي معي.

– إنك لا تعرفين من أكون.

– أنت! إنك ديمتريوس الذي قدم من سايس، وناحت تمثال آلهتي، وعشيق مليكتي، وسيد مدينتي.. ولكنك في عقيدتي لست غير عبد جميل لي، لأنك رأيتني فعشقتي.. أجل، إنك تحبني! لا تتكلم، فأنا أعرف ما تبغي قوله.. تريد أن تقول إنك لا تحب أحداً، بينما يحبك الجميع.. إنك المعبود، المنشود، المدلل.. أتظنني على جهل بكل أخبارك وقصص مغامراتك؟ إنها حديث مشاع بين النساء، ولكنني أراك لم تنصت لكلمة واحدة من حديثي، فقد كنت مستغرقاً في تأمل أجفاني وجمال فمي ونعومة شعري.. آه، كم من الرجال قد تمتعوا بهذه الآيات وعرفوا مدى فتنتها. لقد اشتهى الكل جمالي، من كهول وشباب وأطفال ونساء وفتيات.. لقد رقصت في العام الماضي أمام عشرين ألف شخص، ولكنك لم تكن بينهم.

ولقد رأتني النساء كلهن، والرجال بأسرهم، عارية في المغسل.. ولكنك أنت.. وأنت وحدك.. لن تراني قط!.. إنني أرفضك.. أصدك.. أنبذك.. لن يتاح لك أبداً أن تعرف شيئاً عن حقيقة نفسي، ولا عن مشاعري أو جمالي.. أو حبي. إنك رجل أخرق، متحذلق، قاس عديم الإحساس..

جبان!. لست أدري لم لم تبلغ بامرأة منا الكراهية لك بحيث تقتلك وتقتل معك الملكة التي تعشقك؟

فأمسك ديمتريوس بذراعيها في هدوء دون أن ينبس ببنت شفة.. وتولاها الانفعال لحظة، ثم لم تلبث أن اعتدلت في وقفتها وقالت بصوت خفيض:

– آه.. إنني لا أخشاك يا ديمتريوس! دعني فإنك تؤلم ذراعي.

ورانت عليهما لحظة صمت، ثم قال ديمتريوس:

– كفي عن هذا القول يا كرايزيس. إنك تعلمين إنني لن أؤذيك، ولكن دعيني أتبعك. أن رفضك ديمتريوس سيكلفك ثمناً غالياً مهما كان زهوك وكبرياؤك.. ماذا تخشين؟

– إنك قد اعتدت حب الأخريات، فلست تعرف ما يتكلفه الرجل في سبيل امرأة لا تحبه.

– سأهبك ذهب العالم، فهو لدي في مصر.

– إنني أملكه في شعري. ولقد سئمت الذهب ولست أريده، ولكنني أرغب في أشياء ثلاثة، فهل تعطينيها؟

وأحس إنها توشك أن تطلب المستحيل، فنظر إليها في قلق، بينما ابتسمت ومضت تقول في تؤدة:

– أريد مرآة فضية أرى فيها عيني.

– ستنالينها، فماذا تريدين أيضاً؟ عجلي.

– أريد مشطاً من العاج المزركش أغيبه في شعري.

– ثم..

– قلادة لؤلؤية تنتشر على صدري عندما أرقص لك رقصة العروس المعروفة في بلادي..

فرفع حاجبيه دهشة وقال: أهذا كل ما تبغين؟ سيكون لك ما تشائين؟

– ما أشاء؟ أو تدعني أتخير ما اطلب؟. أتقسم؟.

– أأجل، أقسم..

– بأفروديت التي نحت تمثالها

– أقسم بأفروديت.. ولكن، فيم هذا الحرص؟

– لأنني لم أكن واثقة، أما الآن فها أنذا أحدد لك ما أبتغي.. أتظنني أقبل أية مرآة فضية تبتاع من سوق أزمير، أو من أية غانية مجهولة؟ إنما أريد مرآة صديقتي باكيس التي خدعتني في الأسبوع الماضي، وفاخرت في زهو بخداعها لي في الحفلة التي أقامتها أمام ترايفيرا وموساريون وبعض الحمقاوات اللاتي حملن حديثها إلي... إنها مرآة تعتز بها، إذ كانت يوما ملكاً لرودوبيس ويقال أن سافو قد تطلعت فيها إلى صورتها.. ولذا، فلا شيء أثمن لدى باكيس منها، فهي حريصة، ولكنني أعرف مخبأها، إذ خبرتني به ذات ليلة وهي ثملة. إنها تحت الحجر الثالث من الهيكل القائم في بيتها، فأذهب غداً إلى هذا البيت عندما تخرج– عند الغروب– ولا

تخش شيئاً، فإن جارياتها يخرجن معها.

– إنه جنون.. أتريدينني على أن أسرق؟

– ألست تحبني؟. ظننتك كذاك.. ثم، ألم تقسم؟ خلتك فعلت؟

وأدرك إنها ستقوده إلى الدمار، ولكنه استسلم طائعاً.

– سأفعل ما تقولين.

– كنت واثقة إنك ستفعل، وإن ترددت في بادئ الأمر.. إنها ليست هدية عادية، وما كنت لأطلبها من فيلسوف، ولكنني طلبتها منك وأنا واثقة إنك ستهبنيها.. كذلك لا أطلب مشطاً من العاج كالأمشاط المعهودة التي تشترى من تجار المدينة.. إنما أريد مشطاً مزركشاً من العاج يستقر في شعر زوجة الكاهن الأكبر.. إنه أثمن من مرآة رودوبيس إذ أنه ورث عن ملكة من ملكات مصر في العهود الغابرة.. وسيسعدني أن أملك هذا المشط الجميل، كما إنني أحمل في نفسي ضغينة للمرأة التي تمتلكه، فقد قدمت في الشهر الماضي قناعاً أزرقاً قرباناً لأفروديت، فرأيته في اليوم التالي على رأس هذه المرأة.. وأرى أن في المشط ترضية لي.

– وكيف أحصل عليه؟

– آه.. سيكون هذا أعسر منالاً.. يجب أن تقتلها لتحصل عليه.. لقد أقسمت..

وابتسمت لدياتريوس الذي كان مطرقاً يفكر، ثم قالت في عجلة:

– أما القلادة التي أطلبها، فتلك اللؤلؤة ذات السبع شعب التي تزين عنق أفروديت..

– آه!.. لقد غاليت هذه المرة.. لن أسمح لك أن تضحكي مني.. ولن تحصلي على شيء..

فقالت في إغراء:

–لا تقل هذا فإنك تعرف تماماً إنك ستقدم لي هذه القلادة أيضاً.. وستأتيني في مساء الغد. والمساء الذي يليه وكل ليلة.

ولسوف أنتظرك في الرداء الذي تحبه.. متبرجة كما تود أن أكون.. عاقصة شعري بالشكل الذي تريدني على أن أعقصه عليه.. متأهبة لإرضاء هواك.. فإذا شئت حناناً.. دللتك كطفل صغير.. وإذا رغبت في الصمت.. جلست إليك صامتة.. وإذا أردتني أن أغنى إليك.. فسأسمعك أيها الحبيب أغان منتقاة من كل الشعوب.. منها ما يشبه همسات الربيع نعومة.. ومنها ما يحاكي قصف الرعد شدة.. منها الساذج الذي تنشدم الأم لابنتها.. ومنها الخليع الذي يخجل لسماعه أهل الفسوق.

أما في الليالي التي تحب فيها أن أرقص لك.. فسأرقص حتى الصباح.. كيفما وددت أن أرقص.. في ملابس.. أو عارية.. مسدله على وجهي قناعاً.. أو سافرة.. إنني أعرف كل رقصات أفروديت... بل وأعرف رقصات تستحي أية مخلوقات أن ترقصها.. وسترى!

إن الملكة أغنى مني.. ولكنك لن ترى في قصرها بأسره حجرة تخلب لبك كحجرتي.. لن أحدثك عما ستجده فيها فهناك من الأشياء ما أعجز

عن وصفه.. ثم.. تعرف أن هناك بعد ذلك ما يفوق كل هذا.. هناك كرايزيس التي تحبها، والتي لم تعرفها على حقيقتها بعد.. لقد رأيت وجهي.. ولكنك لا تعرف مدى جمالي.

آه!.. آه!.. ستجد مفاجآت عديدة.. كم ستعبدني وكم سترتجف في أحضاني.. وكم سيغشى عليك لفرط كلفك بي.. ثم.. كم ستجد فمي شهياً؟.. آه يا لقبلاتي!.. أفبعد هذا تبخل علي بمرآة فضية وأنا التي سأضع بين يديك غابة من الذهب ممثلة في شعري؟

وهم أن يمس شعرها.. ولكنها تراجعت قائلة:

- غداً.. وهل بعد هذا تحجم عن الحصول على مشط عاجي يسرني أن أمتلكه.. وأنا التي سأطوق عنقك بذراعين كغصنين من العاج الثمين؟

وهم أن يتحسسها ولكنها ارتدت قائلة:

- غداً.. وهل بعد هذا تأبى أن تأتيني بالقلادة اللؤلؤية التي تزين جيد أفروديت.. وأنا التي سأطبع على فمك قبلات أكثر عدداً من لآلئ البحر.

- سيكون لك ما شئت..

ومال برأسه نحوها في وجد، وصوبت إليه نظرة أسكرته. بينما أعارته شفتيها لحظة. وأغمض عينية نشوانا، فلما فتحهما كانت قد ابتعدت عنه.

وعاد إلى المدينة منكس الرأس، تحت عبء من الخجل يجل عن الوصف.. وقد استشعر ذلة .

العذارى

أضفى الفجر على العالم غلالة من أضوائه اللازوردية، فبدت رصفة الميناء مقفرة ولاحت المدينة وكأنما ضمها الموت إلى أحضانه.. وقد خلت الدنيا من كل شيء عدا الصمت الشامل.وفجأة انبعث على الأرصفة وقع أقدام لفتاتين ما لبثتا أن ظهرتا في ملابس العذراوات فإذا هما إحدى عازفتي الناي اللتين كانتا ترسلان الأنغام في الأمس، والمغنية التي تطرب رواد الرصفة بصوتها، وكانت الأولى أصغر من زميلتها سناً، وأرشق جسداً، تشع عيناها بابتسامة خلابة، وقالت عازفة الناي لرفيقتها:

– ميرتوكليا.. لا تحزني لفقد الرقعة العاجية التي سجلنا عليها حبناً. أو تخشين أن تشكي يوماً في أن حب روديس ليس لك وحدك؟ أو تريني– أيتها البلهاء– إحدى المتقلبات اللاتي لا يصين حباً لصديقاتهن أو يتحولن من زميلة إلى أخرى.. وأي حاجة بك إلى تذكار مني، ما دمت أعيش معك ولك بكل ما في من جوارح وحياة. أتذكرين يوم لقائنا الأول؟. أننا لم نفترق منذ ذلك اليوم، وقد تحابينا بعده بسنوات خمس.

قالت ميرتوكليا:

– إنك لتعرفين يا روديس أن ثمة يوماً آخر خالداً في حياتنا.. يوم حفرت الكلمات الثلاث على الرقعة العاجية فمزجت اسمينا إلى الأبد

"ميتريس تحب رودوكليا""، فخلطت مقطعاً من اسمك بمقطع من إسمي وغدونا كشخص واحد.. ولكن كل يوم يحمل في طياته لنا بدء حياة جديدة. وإني لأراك عندما تستيقظين أصيل كل يوم، فيخيل إلي إنني لم أرك قط من قبل، وأنني أشاهدك للمرة الأولى.. ما أنت بالفتاة، بل أنت من آلهة الماء التي كانت تسبح في غدير أركاديا.. في أية غابة مأهولة بالخالدين. نامت أمك قبل مولدك.. ألا اسمعي يا روديس أقسم بحزام أفروديت دليل بكارتها والشاهد على إنها عذراء طاهرة.. أقسم بالحزام الذي كتبت عليه كل الرغبات والأماني، أنك كل رغبة وأمنية لي في الحياة.. إنني لا أدري ما يحملك على أن تحبيني، ولكنني أقسم لك أن لن يعرف النوم إلى عيني سبيلاً، إذا حرمتني يوماً من هذا الحب، كما فعلت أختك تيانو، التي تليك مهارة في العزف على الناي، وستجديني إثر ذلك وقد خنقت نفسي في حزام العذراء، حتى لا أخلعه يوماً بعدك، وأسلم نفسي لرجل.

وتندت عينا روديس بالدموع.. وفجأة، فطرت ميرتوكليا إلى أن الفتاة متعبة فصاحت:

– أوه.. لقد نسيت أنك منهوكة القوى.. لقد أجبرك هؤلاء الرجال على أن ترقصي لهم، وقد وددت أن أدافع عنك، ولكنني خشيت أن يصيبك منهم ما أصاب أختك أمام أعيننا.. آه ما أقسى الرجال!

فطوقت روديس عنقها بذراعيها وقبلتها قائلة: ميرتو.. ما أظنك تغارين من هؤلاء العابثين؟ لم يؤلمك أن يروني؟ أن تيانو ترضيهم وتشبع

عواطفهم، وقد تركتها لهم، فلن ينالوا مني مأربا يا ميرتو، فلا تبتئسي أو تغاري.

– أغار! إنني أغار من كل مخلوق يقترب منك.. أغار من الثياب التي ترتدينها، ومن الزهور التي تزينين بها شعرك.. آه لو رأيتني ألبس ما تخلفين من ملابس وهي بعد لم تفارقها حرارة جسدك.. آه لو رأيتني أحمل تلك الزهور إلى الغواني الفقيرات ليزرعنها في حديقة أفروديت، فتظل رائحتك فيها حية خالدة، حتى من السعادة التي أسعى لتوفيرها إليك، أغار!

– ألا هيا بنا إلى البيت، فأنا في أقصى حاجة إلى النوم.. يجب أن نعلن تيان أن لم يعد لها بعد اليوم مكان في مخدعنا.. محال أن أتعاون معها بعد الليلة.. ميرتو، إن الأمر غريب.. محال أن يكون هذا ما يدعونه حباً!

– بل هو الحب.

وهفا النسيم يداعب شعورهما ويخلط بين خصلاتها.. واستغرقتا في شبه غيبوبة، وفجأة صاحت روديس وقد رأت امرأة تسير على الرصيف، على مبعدة منها.. في خطوات سريعة:

– آه، أنظرى! هناك شخص ما.. لقد عرفتها.. إنها كرايزيس في ردائها الأصفر..

– ماذا؟ وفي هذه الساعة المبكرة؟

– عجباً، إنها لا تغادر دارها عادة قبل الظهر، بينما الشمس الآن لم تكد تشرق لابد أن ثمة أمراً أصابها، ولا ريب إنه نوع من الحظ السعيد.

وخفتا إلى مقابلتها صائحتين:

– تهانئنا يا كرايزيس

– تهانئكما! كم من الوقت قضيتما هنا.. منذ مطلع الفجر؟ إذن، فهل رأيتما أحداً على الرصفة؟

– ولا رجلاً واحداً

– أواثقان أنتما ؟

– كل الثقة.. ولكن فيم تساؤلك؟ أكنت تتوقين إلى رؤية أحد؟

– أجل.. ربما.. أظن أن من الخير أن لا أراه.. كنت مخطئة إذ عدت ولكني أتيت على الرغم مني.

– ماذا هناك يا كرايزيس؟ إنك تعلمين أننا أوفى صديقاتك فهلا أخبرتنا؟

– كلا.. ستعرفان فيما بعد، وستعرف المدينة بأسرها.. أن ثمة أشياء غريبة تحدث يا فتاتي، وأنني لأموت لهفة إلى مصارحتكما بها، لولا إنني مضطرة إلى أن أمسك لساني عن الحديث عنها.. تعالياً إلى منزلي، فإنني اليوم وحيدة.

– أوه يا كرايزي.. إننا متعبتان وسنأوي إلى منزلنا لننام .

– فلتناما في منزلي.. إن الليلة ليلة عيد أفروديت، وهذا وقت الراحة..

وإذا شئتما أن تبارك الآلهة سنتكما وتجعلها سعيدة هانئة، فيجب أن تذهبا إلى المعبد وجفونكما في دكنة زهور البنفسج، ووجناتكما في بياض السوسن فتعاليا وسأكفل لكما هذين الأمرين.

وأحاطت خصريهما بذراعيها، وانطلقت ثلاثتهن.. وقالت روديس خلال الطريق:

– وإذا ما صرنا في المنزل، هل تنبئيننا بما تتوقعين؟

– لا تصري يا رودي.. لن يكون لك هذا قبل الغد.

– أسعادة تنتظرين؟ أم سلطة وقوة نفوذ؟

– سأكون ذات سلطة كبيرة

ففتحت روديس عينيها دهشة وصاحت:

–هل ستزورين الملكة؟

فأجابت ضاحكة:

– كلا.. ولكنني سأملك سلطة تعادل سلطتها. ألديكما رغبة تتمنيان تحقيقها؟

– آه.. ولكنها مستحيلة، فلم أسألكها؟ إن من تقاليدنا في أبيسوس أن يبارك الكهنة كل فتاتين تتحابان كما تحاببت وميرتوكليا. فتذهبان إلى معبد المعبود أتينا حيث يعمد حبهما، ويبارك الحزامان اللذان يحوطان خصريهما دليلاً على إنهما عذراوان؟ ثم إلى معبد أفينو حيث تقدمان خصلة من خليط من شعريهما. وأخيراً تقيمان حفلة تأويان بعدها في

المساء إلى البيت الذي اتخذتاه سكناً لهما، في عربة محوطة بالأزهار وأكاليل الغار والمشاعل وعازفي الناي. وقد كنا نحلم أن يكون لنا هذا الموكب، ولكن عادة القوم هنا

– سيبدل القانون حتى يبارك حبكما، وسأكفل لكم هذا، فإنني أغبطكما على هذه الصداقة التي يندر وجودها.

ووصلن إلى بيت كرايزيس. وما هي إلا دقائق حتى كانت الفتاتان قد تجردت من ملابسهما فاغتسلتا، في حوضين من المرمر الأخضر، وكرايزيس تتأملهما بعينين لاترياهما..كانت كلمات ديمتريوس تتردد في أذنيها.. وما أحسست بجاريتها جالا وهي تخلع عنها ملابسها. وتنضو عن يديها وأصابعها حليها، وتجرد من نعليها قدميها، ولكنها أفاقت من تفكيرها، عندما أحست بخصلات شعرها تنساب على كتفيها. فطلبت إلى الجارية أن تأتيها بمرآتها.

ترى أكانت تخشى إلا تكون من الجمال بحيث تستبقي في إسارها هذا العاشق الجديد بعد الرغبات الجنونية التي طالبته بتحقيقها ؟ وعرضت أمام المرأة كل ناحية من جسدها الجميل فراحت تتأمل صورتها، وتطيل التحقيق فيها.. وأعجبت ببياض بشرتها التي اكتسبت نعومة من فرط أيدي العشاق التي تتحسسها، ودفئاً من كثرة العناق. وتأكدت من التفاف عودها وليونة خصرها، وامتشاق قامتها. وقاست شعرها واختبرت نعومته وبريقه. ثم تحولت تمتحن قوة عينيها وسحر نظراتها وإغراء شفتيها. وانثنت تقبل ذراعها. فسرى في جسدها شعور من العجب والزهو والاعتداد، إذ مست

شفتاها بشرتها. والتفتت كما لو كانت تبحث عن شخص، فلم تر في مضجعها غير الفتاتين العذراوين تنامان إلى جانبيها.. وكانت قد تناست وجودهما.

القسم الثاني

حدائق الآلهة

كان معبد أفروديت– عشتروت– مقاما خارج أبواب المدينة، في متنزه مترامي الأطراف، مفعم بالزهور والرياحين، معشوشب الأرض، باسق الأشجار، مشتبك الأفنان، وكان هذا المتنزه يتكون من عدد من الحدائق، لم تكن في مجموعها بواد فحسب، أو بمنطقة من القطر فقط، بل كانت عالما بأسره تحكمه الآلهة المعبودة، ويحوطه سياج من ألف وأربعمائة بيت، يسكنها عدد معادل من الغانيات– كاهنات أفروديت– من شتى الأجناس ومن كافة أطراف المعمورة، تعبد كل منهن آلهة الحب والجمال والمتعة، حسب عادات قومها، وبالاسم الذي عرفته في بلادها، إذ كانت المعبودة تعرف بسبعة أسماء، عشتروت، فينوس، عشتار، قريباً، ما يلتا، كيسريس،لاكمي.

وكانت الغواني الألف والأربعمائة ممن تحملهن السفن كل عام من بلاد آسيا، أو أقطار الشمال أو مستعمرات الجنوب، فيما تحمل من هدايا وجزية تقدمها تلك البلاد إعلاناً لطاعتها، أو وسيلة لتقربها من مصر المنيعة المرهوبة الجانب، فإذا دخلت إحدى هاته الغانيات، دنيا أفروديت الحالمة، لم يعد لها أن تغادرها إلا يوم أن تخلف مرحلة الشباب، وكانت كل تقدم للمعبد نصف كسبها، وتحتفظ بالنصف الآخر لقوتها وزينتها وأطايبها، فإذا حملت إحداهن من أحد رواد الحدائق الذين يترددون عليها، كان عليها أن تقدم المولود– إذا كان ولداً لخدمة الآلهة، أو تكرس حياتها–

إذا كانت المولودة بنتا– لأفروديت، فيعلن منذ مولدها زواجها إلى ابن الإله ديونيسوس، ثم يدفع بها عندما تكبر إلى "الديداسكاليون" المدرسة الكبرى، التي تلقن فيها الغانيات– خلال سبع سنوات– كل ما يبدو في المعبد أو يحوطه من أسرار غامضة حتى إذا أتمت الدراسة بنجاح، منحت داراً من الألف والاربعمائة.. وبدأت عبادتها العملية للبدن.. ولآلهة اللهو والعبث.. أما هيكل المعبودة، وهو الهيكل الأكبر، فكان أقدس مكان في مصر بأسرها، جمع بين روعة الفن، ودقة النقش، وضخامة البنيان، وقد صيغت أبوابه من الذهب، تقوم عليها اثنتا عشرة خادمة من خادمات أفروديت.

وإلى هذه الغابة– كما يجب أن تدعى حدائق الآلهة في مجموعها– قصد ديمتريوس، في اليوم الذي التقى فيه بكرايزيس.. فما إن اقترب من مدخلها، حتى صاحت به حارسة شابة:

– طهر نفسك أيها الغريب.

ثم غمست نهاية شعرها في ماء معد لهذا الغرض، ومست أجفانه وشفتيه وأصابعه، لتبارك نظراته وقبلاته ولمساته، ومن ثم أصبح في حل من أن ينفذ إلى غابة أفروديت.. إن نفسية المرأة على درجة من البساطة لا يكاد يصدقها الرجل، فهو إذا وجد الأمر أمامه واضحاً، عمد إلى تعقيده حتى يضل في فراغه.

وهكذا ظهرت روح كرايزيس لديمتريوس..كانت كروح طفل صغير في الصفاء، فتراءت له غامضة مبهمة عويصة الفهم.. فبعد أن خلفها على

الرصفة، عاد إلى بيته وكأنه مستغرق في حلم، لا يجد جواباً للأسئلة التي راحت تعبث بذهنه.. ترى ماذا ابتغت من هذه الهدايا الثلاث؟كان من المستحيل أن تحمل أو أن تبيع مرآة سرقت من امرأة معروفة، ومشطاً أخذ من امرأة مقتولة، وقلادة المعبودة اللؤلؤية.. كما أنها إذا احتفظت بها عرضت نفسها لخطر كشف أمرها يوماً بعد يوم.

إذن، فلماذا طالبته بها؟ ألتقضي عليها؟ إن النساء لا يهنأن بالأشياء المستورة بل إنهن لا يستشعرن بسعادة إلا إذا باهين بحيازتهن لها.. من المؤكد إنه لو شاء لحملت كرايزيس من بيتها، ووضعت تحت رحمته ليتخذ منها خليلة أو حليلة أو جارية.. كيفما أملى عليه هواه.. بل إن له مطلق الحرية في أن يقضي عليها، وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يأبه لاختفاء غانية.

بالطبع كانت كرايزيس تعرف هذا.. ولكنها تجاسرت على إملاء رغباتها عليه.. وقد أستثار إعجابه ما أبدته من شروط وعروض في مقابل أن تهبه نفسها.. كم من امرأة مشتهاة مثلها قدمت إليه نفسها في ابتذال؟ أما هي فلم تطلب حباً أو ذهباً.. أو جواهر وإنما طلبت ثلاث جرائم منكرة، فاستثارت بذلك كل اهتمامه.

لقد عرض عليها كنوز مصر.. وأنه ليشعر الآن لو إنها قبلتها.. لما تلقت منه دانقاً.. ولا حس منها سآمة قبل أن ينال منها وطراً،ولكن الجرائم الثلاث كانت ثمناً غير عادي.. وإنها الجديرة بهذا الثمن ما دامت قد جرؤت على طلبه.. ومن ثم عاهد نفسه أن يمضي في المغامرة حتى

النهاية.. وقبل أن يدع لنفسه فرصة للتفكير والتردد، ذهب– في نفس اليوم التالي– إلى منزل باكيس.. فوجده خالياً.. فأخذ المرأة الفضية.. ويمم شطر الحدائق، مسائلا نفسه: أيذهب بعد ذلك مباشرة إلى ضحية كرايزيس الثانية؟.. وتردد.. كانت تونى– زوجة رئيس الكهنة– التي تملك المشط العاجي.. فاتنة.. رقيقة الأعطاف.، فخشى أن يلين قلبه.. إذا هو تبدي أمامها قبل أن يأخذ أهبته الموقف. وواصل سيره في الحدائق.. مارا بالغانيات اللاتي كن جالسات يعرضن ملاحتهن على الرواد.. دون أن يمل من إبداء أعجابه.. كان لا يتمالك قط مشاعره إزاء جمال المرأة أياً كان هذا الجمال.. لا يحس تقززاً لشباب أدبر.. أو تجاهلاً لصبا ناضر وبهاء غصن مقبل..

وكانت أية امرأة الليلة.. قديرة على أن تخضعه لسحرها.. لو أنها وقفت صامتة لا تصطنع الهوى زيفاً.. وكانت عيناه كلما وقعتا على آية حية من آيات الجمال.. أيلين قلبه للنداء المغري الذي كانت كل توجهه إليه بدورها عندما يمر بها.. ولكنه كان لا ينفك منصرفاً عنهن.. ماضياً في طريقه.. حتى اعترضته فتاة صغيرة.. في رداء أزرق أمالت رأسها على كتفها في دلال وسألته في لطف:

– أليست هناك وسيلة لاجتذابك؟

وبعثت دعوتها الغريبة في نوعها.. ابتسامة إلى شفتيه.. فاستجاب لها، وفرحت الفتاة في فرح.. فقادته إلى حجرتها التي كانت نافذتها تطل على البحر.. وعلى المدينة المستلقية خلف الحدائق.. في دعة!

وجاءته الفتاة بوافر من الكعك والتين وأقراص العسل والنبيذ، بينما كانت الشمس تتراءى له عند صفحة الأفق، تلقي نظراتها الأخيرة على مدينة الغواني والغواية واقتعدت ركبتيه، ورفعت ذراعيها تعيد إلى شعرها الكستنائي وردة سقطت منه.

وهتف فجأة في دهشة:

–ولكنك لست امرأة؟

– إذن، فماذا أكون بحق الآلهة؟ فيلسوف عجوز؟

– كم تبلغ سنك؟

– لقد ولدت في الحدائق، من أم كانت من الغواني الجميلات، إنني ما أزال في السنة السادسة من سني الدراسة في الديداسكاليون، وسأتم هذه الدراسة في العام المقبل.. ما أبطأ مرور هذا العام.. آه لو علمت الملل الذي ألقاه، أو خبرت السآمة التي تبعثها المعلمات في نفوسنا بتلقيننا دروسهن في انتظام لا روح فيه ولا حياة.

– أو يتردد عليك كثير من الزائرين؟

– كلهم من المكتهلين، ولابد لي في ذلك، فإن الشبان حمقى! إنهم لا يحبون غير اللائي بلغن الأربعين.. كم من ملاك رائع الجمال منهم، فضل أحضان عجوز مترهلة على أحضان شابة غضة الإهاب مثلي..كم آمل ألا أبلغ من العمر ما بلغته هاته النسوة، فإنني جد سعيدة بشبابي، ألا دعني أقبلك فإنني أحبك..

وراحت تبلل شفتيه بالعسل، فابتسم وسألها:

– ولكن.. ما اسمك؟

– ميليتا.. أما قرأته على الباب؟ أما تراه على الحائط؟

ونظر فإذا الجدار مليء بعبارات الإعجاب والوله والإطراء كتبها زائروها عقب الليالي التي قضوها بين ذراعيها.. وفجأة، بهت ديمتريوس، وتبدت عليه علائم الدهشة والذهول، إذ قرأ على الجدار:

"ميليتا– كرايزيس، كرايزيس– ميليتا"

فسألها: ما هذا؟ من الذي كتب هذا الاسم؟

– آه.. لقد كتبته بنفسي.

– ولكن.. من هي كرايزيس هذه؟

– إنها خير صديقاتي..

– لقد حدست هذا بنفسي.. وما عنه سألتك.. وإنما سألتك أيتهن، فكثيرات هن من يدعين "كرايزيس"!

– إنها أجملهن.. إنها كرايزيس الجليلية.

– أو تعرفينها؟ إذن، حدثيني عنها! من أين قدمت.. وأين تعيش؟

– إذن فأنت تحبها ؟

– ليس هذا شأنك.. إنما حدثيني بما تعلمين من أمرها، فإنني تواق لمعرفة كل شيء..

– ألست أعرف أكثر من إنها زارتني مرتين، فكنت في غبطة لم تدع لي مجالاً لسؤالها عن شيء، إنها جميلة بديعة، فماذا تريدني على أن أقوله أكثر من هذا؟

وطوقت عنقه بساعدها.. ولكنه عاد يسألها:

– ألا تعرفين شيئاً غير ذلك عنها؟

– أعرف إنها جاءت من "الجليل" تعيش في الحي اليهودي، في طرف المدينة. وإنها في العشرين من عمرها.

– أو ليس لها بين الرجال أصدقاء..؟

– طبعاً. وقد كان يصحبها أحدهم في زيارتها الأولى. وأقسم أنها لم تكن ملولاً منه.. فإن في وسعي أن أقرأ في عيني المرأة مدى استمتاعها بصحبة رجل.

– أولاً تعرفين إن كان لها صديقة أخرى في الحدائق؟

– أجل.. امرأة فقيرة من بلدها تدعي شيميريس، فإذا شئت صحبتك إليها.

لم يكن الليل قد غيب النهار بعد في أطوائه، إذ كان الوقت صيفاً، وضوء النهار طويل المكث.. واسلم ديمتريوس قياده لميليتا.. فراحت تشق الطريق خلال الأشجار المتقاربة.. والأغصان المتعانقة، حتى عثراً على شيميريس جالسة القرفصاء بين شجرتين.. في رداء أحمر خلق أبلته الأيام.. وقد لاحت في عينيها حمى الرغبة التي لا تهدأ في أعماق هذا النوع من

النساء.. وتجلت على أساريرها إمارات الجشع و.. الحنين الطاغي الملح.. وقد وقفت على مقربة منها، عنز ربطت بسلسلة ذهبية إلى شجرة..

وقالت ميليتا:

– شيميريس.. قفي فهاك شخصاً يبغي التحدث إليك..

فتطلعت إليه اليهودية دون أن تتحرك، بينما تقدم ديمتريوس قائلاً:

– أتعرفين كرايزيس؟وهل ترينها كثيراً؟

– أجل..

– أبوسعك أن تحدثيني عنها؟

–كلا..

– ماذا.. أترفضين؟ ولم لا؟

وقالت ميليتا:

– حدثيه عنها.. اطمئني فهو يحبها ويرجو لها الخير..

– أرى جليا إنه يحبها.. وما دام كذلك، فهو يريد بها شراً، وإذا كان يحبها، فلن أتكلم..

وارتجف ديمتريوس لفرط الغضب، ولكنه ركن إلى الصمت، بينما قالت اليهودية:

– هات يدك، لأنظر هل أنا على خطأ..

وتناولت يده اليسرى، فأمالتها نحو ضوء القمر الذي بدأ إذ ذاك

ينساب على الأرض، فمالت ميليتا تنظر معها وقد بدأ عليها اهتمام مفرط.. وتساءل ديمتريوس:

– ماذا ترين؟

– أرى.. أأخبرك بما أرى؟ أولاً بداخلك الاستياء مني؟ بل، هل تصدقني؟ أرى في بادئ الأمر سعادة شاملة، ولكنها كانت في الماضي.. وأرى حباً طاغياً، ولكنه يغيب في الدماء..

– دمائي!

– دم امرأة ثم دم امرأة أخرى.. ثم دمك أنت.. ولكن، بعد حين..

وهز ديمتريوس كتفيه، ثم تحول، فلمح ميليتا تنطلق بين الأشجار في أقصى سرعة.. فقالت شيميريس:

– إنها جزعة.. ولكن الدم الذي رأيته ليس دمها، لا ولا دمي.. دع المقادير تجري في أعنتها، ما دمت لا تملك إيقاف الأحداث.. لقد كتب نصيبك من قبل مولدك.. أذهب، فلن أزيد..

وتركت يده فهوت إلى جانبه.

حب وموت

"دم امرأة.. ثم دم امرأة أخرى.. ثم دمك أنت. ولكن بعد حين".

مضى ديمتريوس يردد هذه الكلمات وهو يسير.. وفي نفسيه شعور خفي يدفعه إلى أن يؤمن بصدقها.. رغم إنه ما كان ليثق مرة بنبوءة عراف أو حديث ساحر.. وأخذ يتأمل راحة يده اليسرى، حتى إذا أعياه أن يفهم شيئاً مما حوته من أسرار رفعها إلى عينيه، محاولاً أن يحول أفكاره إلى وجهة أخرى..

وراح اسم كرايزيس يجاوب خفقات قلبه، في حمى ووجد.. كأن خير ما ينبغي عليه أن يفعله– وأن يفعله في الحال– أن يرضيها. وأن يقهرها ويحتويها بين ذراعيه. ثم يفر بها إلى سوريا أو بلاد اليونان. أو روما.. أو إلى أي مكان آخر لا يكون له فيه عاشقات، لا ولا يكون لها فيه عشاق.. ولقد حصل الآن على إحدى طلباتها الثلاث.. فبقى المشط والقلادة.. وعول على أن يبدأ بالسعي وراء المشط..

كان يعرف أن امرأة الكاهن الأكبر تجلس كل مساء – بعد مغيب الشمس– على مقعد من الرخام.. مولية ظهرها إلى الغابة. في مكان يشرف على البحر. فقد كانت هذه المرأة– ككثيرات من بنات جنسها– تهيم به.. وقد أخبرته مرة إنه يستطيع أن يجدها في هذا المكان ، إذا شاء يوماً أن يستجيب لحبها.. ومن ثم يمم شطر هذا المكان.. ووجدها فعلاً.

ولكنها لم تره حين اقترب. إذ كانت مستسلمة إلى سنة من النوم. هانئة بأحلام تراودها..

واقترب ديمتريوس في حذر. فجلس إلى جوارها.. وراح يقترب في احتراس وهو يرقب ذراعيها البضتين، وصدرها الناهد الجميل. ومد يده يتحسس في رفق رداءها. فارتجف جسمها الدافئ. ولكنها لم تستيقظ. وإنما تسارعت أنفاسها.. وانفرجت شفتاها.. وانبعثت من بينهما غمغمة حالمة.. وارتجف البحر إذ ذاك عن كثب تحت لمسات نسائم الليل العابرة، كما ارتجف صدر زوجة الكاهن تحت لمسات ديمتريوس.. وراح القمر يرقى في السماء.. ثم أرسل شعاعه على شعر المصرية النائمة، فانبعث من المشط الغائب بين خصلاته وميض وبريق.. إذ ذاك تناول الشاب وجه المرأة بين راحتيه وإدارة نحوه.. وفتحت إذ ذاك عينيها.. فتجلت فيهما الدهشة.. وتمتمت: "ديمتريوس!. ديمتريوس!." ثم استسلمت بين ذراعيه.. مغردة في سعادة وغبطة:

– أوه!. هل أتيت أخيراً؟ أو حقاً أنت الذي أيقظتني يداه؟ أنت ذا يا ابن معبودتي.. ويا آله حياتي!

وتراجع ديمتريوس.. فزحفت إلى جواره صائحة:

–ماذا تخشي؟.. إنني لست لك.. كما أنا لسائر الشعب.. امرأة الكاهن الأكبر التي لا ينبغي لشخص أن يمسها.. تناس اسمي ومكانتي يا ديمتريوس.. فليس لهما في الحب اعتبار.. إنني الآن لست غير امرأة تحبك بكل جوارحها.. إلا انصت لي.. لست أطمع في أن أغدو مزاحمة

للملكة.. لا يا ديمتريوس.. اعتبرني جارية صغيرة كتلك الجواري اللاتي للرجل أن يهجرهن في أية لحظة.. ثم يتناسهن سراعاً... أما أنت.. فدائماً الرجل الذي أحبته الآلهة فحبته بكل ما تعتز به من قوى.

وازداد أسي ديمتريوس.وقال:

–وبأية قوة تظنين الآلهة قد حبتني أيتها التعسة.. سوى..

– الحب.

– أو الموت..

فأجفلت وقالت:

– ماذا تعني؟ ولكن الموت بعيد عني كل البعد.. وقد يجوز لي أن أفكر فيه بعد أن أبلغ الستين ولكن.. لم تتحدث عن الموت يا ديمتريوس؟

– الموت هذه الليلة..

فتولاها الجزع، وأرسلت ضحكة مرتجفة وهي تقول.. الليلة؟ من قال هذا؟ ولم أموت؟.. أجبني أي وحي مروع..

– هكذا كتب لك القدر..

– وكيف عرفت؟

– إنما عرفت لأنني المنوط به أمر مصيرك.. قد أراد القدر لك أن تموتي على يدي.على هذا المقعد.

وأمسك برسغها.. فتلعثمت في رعب وهي تقول:

– لن أصيح يا ديمتريوس.. ولن أطلب النجدة.. فإذا أتاني الموت على يديك فما.أحلاه.. إنني أتقبله.. أتمناه أشتهيه..

ونهضت عن المقعد.. فقادته مترنحة إلى ظلمة الغابة. وهي تواصل حديثها:

– ما دمت تمسك بين يديك كل ما تحبونا به الآلهة..

وما دامت في يديك القوة التي تهبنا الحياة.. وتلك التي تنتزعها منا.. فأبسط يديك يا ديمتريوس فوق عيني.. اليدين اللتين تهب إحداهما الحب.. وتقدم الأخرى الموت.. إفعل وستجدني أقابل الموت غير آسفة على شيء وأمسكت عن الكلام.. وانبعثت أنفاسها من بين شفتيها.. تحمل ألحان الحب التي تدور في أعماق قلبها.. وألقت بنفسها بين أحضانه.. فعانقها في عنف.. وإذ ذاك تناست مصيرها التعس.. في غمرة الفوز.. وراح جسدها اللدن يرتجف في هناءة، حتى إذا طال عناقهما.. وخيل إليها إنه قد أهمل تنفيذ المصير الذي شاءته الأقدار.

هتفت فجأة:

– آه!. دعني الآن أموت يا ديمتريوس.. لماذا تأخرت؟

وانحنى فوقها.. فحدق من جديد في عينيها الجميلتين المتطلعتين إليه.. ثم سحب من خلف أذنيها أحد "الدبابيس" الذهبية الطويلة التي تزين شعرها.. فأغمده تحت ثديها الأيسر.

عابد التمثال

كان من المحتمل أن تقبل زوجة الكاهن الأكبر أن تمنح ديمتريوس مشطها عن طيب خاطر، من أجل الحب الذي يملأ جوانحها نحوه، غير أن ديمتريوس ما كان ليقبل للقتل بديلاً.. فقد اشترطت كرايزيس عليه أن يرتكب الجريمة. وكان في وسعه أن يرتكن إلى أن الأقسام التي يحلفها المرء في الساعات الحرجة من عمر غرامه.. ولكنه لم يشأ التشبث بأية حجة تنقذه من البر بقسمه، لذلك لم يلبث بعد مصرع زوجة الكاهن إن اقتطع من شعرها خصلة لف فيها المشط الماحي.. ثم غيبهما في ثنية من ردائه.. وانطلق دون أن يسمح لذهنه بلحظة يتروى في التفكير فيها.. ليحقق الطلب الثالث فينتزع عن جيد أفروديت عقدها.

ومع إنه لم يكن ينتظر أية عقبة تقف بينه وبين دخول المعبد من الباب العام.. إلا أنه آثر أن ينفذ إليه من منفذ خفي في مقبرة كبار كهنة مصر.. الجاثمة قبورها خلف العيد، وكان الليل مشرقاً.. فنفذ إلى الهيكل القدس وأغلق الباب في حذر.. وإذ ذاك أحس برجفة تهز بدنه.. وما جرؤ أن يرفع عينيه.. وشعر بالذعر من السكينة الموحشة.. وخيل الله أن الفراغ المظلم حوله.. يزدحم بمخلوقات غريبة مجهولة ومسح بيده على جبينه حالم أزعجته الحياة.. فشاء أن يتأكد إنه لم يعد إليها.

وأخيراً.. راح يتطلع إلى ما حوله، فإذا بتمثال المعبودة... وقد استقر–

تحت ضوء القمر الذي كان ينفذ إلى الهيكل– على قاعدة من الصخر الأحمر.. محملاً بالهدايا الأنيقة.. يبدو وكأنما بعثت فيه الحياة.. كانت المعبودة عارية. وقد أحاطها جو من الأنوثة الناعمة.. ممسكة في إحدى يديها بمرآة.. بينما راحت اليد الأخرى تسوي في عنقها عقداً من اللآلئ ذا سبع شعب..

وغمر نفس ديمتريوس شعور من الخشوع جل عن كل وصف.. وأيقن عن صدق أن التي أمامه هي أفروديت نفسها، لا التمثال الذي صنعته يداه، فبسط ذراعيه متمتما بصلوات غامضة يعلن خشوعه بالمعبودة الفاتنة، وتبدى له التمثال وكأنه يتحرك على قاعدته الصخرية عارياً. ساحراً. يفوح بعبير الأنوثة. والطهر وحدق في الجسد الحي الذي تراءى له. وهو يخشى أن تذيب حرارة نظراته هذا الخيال الحبيب.. ثم تقدم في رفق. فمس أصبع التمثال.. وكأنه يريد أن يتحقق من وجوده.. وأحس بقوة خفية لا قبل له بمقاومتها.. تدفعه إليه فراح يصعد درجات القاعدة الصخرية، حتى غداً إلى جوار التمثال.. فطوق منكبيه بذراعيه.. ومضى يحدق في عينيه..

وارتجف. وانتشى. وضحك لفرط الفرح. ثم انسابت يداه تتحسسان ذراعي التمثال، فصدره، فكل أعطاف جسده. وتفانى بكل حواسه في الجو الروحي الذي سما به عن العالم المادي. ومست يد القلادة. فرفعها في إعجاب عن عنق التمثال، وعرضها لشعاع القمر وهو يتأمل بريقها الخاطف.. ثم أعادها في دعة.. وتحول ينشر قبلاته على يد التمثال وعنقه و.. الفم المنفرج الشفتين.. ثم هبط إلى أرض الهيكل.

وإذ ذاك، خيل إليه أنه قد صحا من السنة التي تسلطت عليه.. فذكر ما جاء بشأنه. وتضرج وجهه خجلاً وأخذت معالم الصورة التي انطبعت في ذهنه عن كرايزيس تتلاشي. فغدا كرجل استيقظ عند الفجر. فتولاه العجب إذ استسلم في الليلة السابقة لغواية حمقاء. ورأي إنه كان ضحية مس من الجنون العابر.. أو ضحية لمرض نفساني، شفي منه، وأن ظل يرزح تحت آثار الغيبوبة التي حمله إليها، ومال مستنداً إلى حائط الهيكل يفكر، لقد نسي كل شيء عن كرايزيس.. وعن المرأة والمشط المستترين في ثنايا ردائه. واستغرق في صلاته الصامتة للآلهة الحبيبة الفاتنة..

ورفع النهار عن العالم وشاح الليل، ثم برزت الشمس من خدرها. فمضت تصعد في السماء إلى عرشها. وسمع ديمتريوس أصوات نساء قادمات. فشاء أن يتحاشاهن. فكمن في مخبأ في ركن من الهيكل. وما لبث الباب أن فتح. فنفذ رهط من الغانيات مثقلات بالهدايا. جئن يقدمنها إلى معبودتهن رافعات أمانيهن وصلواتهن في عيدها السنوي.

دعوة

قبيل منتصف الليل.. استيقظت كرايزيس على صوت ثلاث دقات تدوي على باب دارها.. فنهضت من فراشها الذي كانت تنام فيه بين الموسيقيتين العذراوين.. وفتحت باب مخدعها، فترامى إليها صوتان يتحدثان لدى مدخل الدار.. فتساءلت:

– من الطارق يا جالا؟

– إنه نوكريتس يرغب في الحديث إليك.. فاعتذرت إليه

– ولم يا حمقاء؟ دعيه يوافيني في مخدعي

وعادت إلى الفراش.. وما لبث أن أقبل نوكريتس.. فوقف برهة متردداً لدى مدخل الحجرة.. وكأنما يخشي أن يزعج مقدمه خلوة كان ينعم بها أحد عشاق الغانية.. فلما تحقق أن ليس من رجل في المخدع.. دلف إلى الحجرة

وقالت كرايزيس:

– أجلس.. فليس لدى عشاق يخجلك أن تعكر صفو هناءتهم.. إنني أدرك أنك لم تأت لأجلي.. فماذا تريد؟

كان نوكريتس فيلسوفاً.. هام بحبه باكيس عشرين عاماً لم يحاول خلالها أن يخونها، أو أن يغرر بثقتها فيه.

قال نوكريتس:

–إنما أتيت لأدعوك إلى وليمة عشاء تقيمها باكيس، فقد بدأ المدعوون في الحضور. ووقعت عيناه إذ ذاك على الفتاتين وقد اختلجت أجفانهما فقال:

–إن زميلتيك ستكونان من مطربات الحفل، وأعتقد لذلك أن من واجبهما أن تخفا الآن إلى بيت باكيس.. فقد بدأ المدعوون في الحضور.

ونهضت الفتاتان فأسرعتا تتهيآن للخروج.. ثم انصرفتا هارعتين..

وقال نوكريتس بعد فترة: إنك تسلكين سلوكاً طيباً.. لو أن أمده طال لكان موضع فكاهة لنا..

– آه.. كلا! لن أسمح لكم بالخوض في هذا الموضوع

– وما الذي تستندين إليه من مبررات؟

– إن المرأة من ناحية الحب أداة فانية، فهي لم تصب في قالبها الجميل إلا للحب. وهي وحدها التي تعرف كيف تحب، لذلك فالحب بين الرجل والمرأة قد يكون منتقصاً غير مكتمل النقاء، أما بين امرأتين، فهو العاطفة الكاملة التي تسمو على كل نقيصة. أما بين رجلين، فهو مجرد صداقة، صدقني يا نوكريتس.. إن الفلاسفة الذين تناولوا الحب في بحوثهم لا يفقهون عنه شيئاً.

أما أنا، فلا أرى رأيك. وليس ثمة ما يستهويني في صداقة تقوم بين

امرأتين، تريدان الاحتفاظ بأنوثتيهما، بينما تعمدان في الوقت نفسه إلى تقليد الرجال، والتشبه بالجنس الخشن الذي تبغضانه.. إن ما يشير الاهتمام بهذه الرابطة التي تقوم بينهما هو عدم التآلف بين جسديهما، كما أن عواطفهما تكون أكثر إرهافاً ورقة.. إنهما لا تتعانقان كما يتعانق أي رجل وأية امرأة. وأن المتعة التي تستشعر إنها لتقل كثيراً عن تلك التي تسري في جسدي رجل وامرأة غاباً في نشوة العناق.. إنهما لا تعرفان شيئاً عن أساليب الحب الوحشية. إن الحب البشري يمتاز عن الشهرة التي تسري في أجساد الحيوانات بشيئين قدسيين.. التدليل الغزلي والقبلة. وهما كل ما تعرفه المرأة، وهما اللذان يرفعانها إلى مرتبة الكمال..

- محق أنت فيما تقول، ولكن لم تؤنبني ولم تلومني؟

- إن كثيراً من النسوة أصبحن لا يجدن المتعة إلا في صحبة غيرهن من بنات جنسهن. ولو أنك ظاللت على صداقتك لهاتين الفتاتين، لما سمحت لنا بعد ذلك بلقائك.. إنني ألومك. بل وأعنفك لفرط غيرتي. ولكن.. لقد أطلت المكث، فلابد أي من الانصراف.. هل أنبئ باكيس إنك استجبت لدعوتها؟

- إنني قادمة..

وما إن خرج نوكريتس، حتى وجدت كرايزيس نفسها نهبا للهواجس والأفكار.. ترى ألم تعلم باكيس بعد بسرقة مرآتها؟ أو يكون ديمتريوس قد تناسى أمر المرأة، أو تناسي وعده بسرقتها؟ وتولتها الحيرة فأمرت جاريتها أن تأتيها "بالزهر" تستشيره في أمرها..ولكن الزهر كثيراً ما يكذب.. وقد

عاندها اليوم.. إذ ألقته ثلاث مرات. فكان في كل مرة ينبئها بأمر غير الذي طالعها في المرتين الأخيرتين، حتى إذا ضاق صدرها صاحت:

- إأن "الزهر" لعبة أغريقية، وهو لا يدل على شيء.. سأجرب سواه.

وجففت الدموع التي انسابت لفرط الألم والغيظ، ثم تناولت أداة مما ابتكره أبناء جنسها- العبريون- القراءة الطالع.

وأنبأتها الأداة أن طلباتها الثلاث سوف تتحقق، فكادت تجن لفرط الفرح.

في هيكل المعبودة

ظل ديمتريوس في مكمنه بالهيكل، حتى فرغت الغانيات من تقديم هداياهن وقرابينهن إلى المعبودة، ومن رفع أمانيهن وصلواتهن إليها، وانصرفن.. وإذ تأكد من خلو الهيكل إلا منه.. برز من المكمن وهو في حالة نفسية قاسية.. تتنازعه عوامل مختلفة متباينة.. كان يظن نفسه قد شفي من غواية كرايزيس.. ولكن نظرة غريبة رآها من مكمنه.. رده ثانية إلى الخضوع لهذه الغواية.. فقد رأي كرايزيس.. تتقدم في مؤخرة الغانيات، حتى إذا غدت أمام التمثال.. ركعت في خشوع وتبتل.. ثم نهضت فقدمت مرآة من البرونز قائلة:

- إليك يا عشتروت.. معبودة الليل.. تقدم كرايزيس مرآتها التي كثيرا مارات وجوها وقسمات صغتها أنت بيديك الخالقة.. بيديك يا قديرة.. اللتين تحركان الشفاه لتبحث عن الأجساد الدافئة تقبلها..

وتناول الكاهن المنوط به خدمة المعبودة.. مرآة كرايزيس، فوضعها لدى قدمي التمثال.. وعادت الغانية تخلع من شعرها الذهبي مشطاً من النحاس.. قدمته قائلة:

- إليك يا أنا ديومين.. التي ولدت من الشفق الدامي.. ومن زبد البحر الباسم.. تقدم كرايزيس اني جمالك العاري الذي تنتشر عليه اللآلئ تزينه.. المشط الذى ترجل به الشعر الذي مسحت عليه بيدك عند خلقها.

وناولت المشط إلى الكاهن العجوز، ثم نزعت عن جيدها قلادة من الزمرد..

وعادت تقول: إليك أيتها المعبودة التي خففت من تفرج وجوه، العذارى الخجلات.. إليك يامن نقدم الحب باسمها.. تهدي كرايزيس قلادتها التي أخذتها من أحد عشاقها لقاء ليلة باتها في أحضانها.. كل زمردة كانت بقبلة عشت فيها أيتها المعبودة لحظة كنا نسبح خلالها بحمدك.

ثم عادت تركع من جديد، وهمت بالانصراف.. فسألها الكاهن:

– وماذا ترجين من المعبودة في مقابل هذه الهدايا؟

فهزت رأسها مبتسمة وقالت: لا شيء.

هذا المنظر، أعاد ديمتريوس ثانية إلى إسار الغانية الساحرة، فأحس بنفسه وقد غداا كالعبد الرقيق مشدوداً إلى عربة في موكب قائد منتصر..

وحاول أن يفر من موقفه، ولكنه أحس بها فجأة تسيطر على زمامه.. كان قد رآها وهو في مكمنه قادمة عن بعد شاسع، وقد ارتدت نفس الثوب الأصفر الذي رآها فيه على رصفة الميناء.. وكانت تخطر في خطوات متباطئة ودلال.. وخيل إنها تقصده هو، وكأنها كشفت سر مكمنه، وأدرك إنه لن يحجم عن الارتماء على قدميها لو أنها أقبلت عليه.. فلما قدمت المرأة للمعبودة.. تطلعت فيها لحظة. فخيل إليه أن نظراتها تنبعث من عينيها ثملة بنشوة خفية.. وعندما همت بانتزاع المشط من شعرها، تراءت له ذراعها بضة شهية. وأسفرت له غلالتها عن تقاطيع جسمها الفاتن. وإذ حملت إلى المعبودة قلادتها.. امتدت يدها تسوي

الغلالة على صدرها العاري. وتولت ديمتريوس إذ ذاك عاطفة الحنين. وقامت في نفسه رغبة طاغية تناديه أن يسعى ليحتفظ لنفسه- ولنفسه فقط- بهذه المفاتن الحية الناضجة المشتهاة.. وخيل إليه أن الغيرة تمزق نياط قلبه، إذ فكر في أنها لأي رجل غيره. حقيراً كان أو كبيراً، وضيعاً أو عظيماً- أن يحظى بهذا الجسد الغض الطري- فعول على أن يستأثر بصاحبته هو.. وحده.

لذلك لم يتردد ديمتريوس- وقد خلا الهيكل إلا منه- عن أن يتقدم وهو يغالب الصراع القائم في أعماقه، فيصعد درجات قاعدة التمثال، وينزع القلادة عن عنق المعبودة.. ثم غيبها في طيات، ردائه.وانصرف.

القيثارة الساحرة

انطلق ديمتريوس يجد في سيره والأمل يخالج نفسه في أن يلحق بكرايزيس في الطريق المؤدية إلى المدينة، قبل أن يفقد جرأته ورغبته.. وكانت الشمس قوية وقد راحت أشعتها تنعكس على أرض الطريق البيضاء، فتبهر ناظريه، مما اضطره إلى إغماض عينيه.. وفيما هو يسير على غير هدى، كاد يصطدم بأربعة من العبيد، يتقدمون موكباً اعترض سبيله، وسمع فجأة صوتاً ناعماً:

– أهذا أنت أيها الحبيب! يا لغبطتي بالعثور عليك!

ورفع رأسه ليجد الملكة بيرنيس مضطجعة في محفة ملكية واسعة الأرجاء، عالية السقف، تنسدل الستائر على جوانبها، وكأنها حجرة كبيرة، يحملها عشرون عبداً..

وصاحت الملكة وهي تبسط ذراعيها إليه:

– قفوا أيها العبيد!

وأحس ديمتريوس بالغيظ يطغى في أعماقه، بيد أنه لم يك في وسعه أن يرفض فانصاع مرغماً، والضيق يكتنفه، بينما غمر الفرح قلب الملكة، فبدت كقطة لعوب.. ودعت بنظرة من عينيها، المثال الشاب إلى جوارها، وهي تردد في حبور: "أهلا بك يا حبيبي! يا لسعادتي!".. وسحبت يده، فأسندت خدها إليها وقالت:

– كنت أبحث عنك أيها الحبيب، فأين كنت؟ إنني لم أرك منذ يومين، ولو لم ألقاك الآن صدفة لمت أسى.

وتحولت إليه فقبلته، ولكنه لم يخرج عن صمته، ولم يكد يسمع كلمة واحدة من حديثها..

وعادت تقول:

–لقد بكيت يا حبيبي طيلة الليل..كم امتدت ذراعاي لاحتضانك فإذا هما تجدان مكانك شاغراً ؟ كم أرسلت من عبيد يفتشون جنبات المدينة، وأرجاء الحدائق عنك، عندما افتقدتك! هل كنت في الحدائق مع امرأة أخرى، فإن عينيك تنطقان بهذا! لابد إنك كنت في الهيكل تزجي صلواتك للمعبودة.. إنك تحبها أكثر مني ويا لي من مسكينة مهجورة منبوذة!

لقد مللتني في الحقيقة وسئمت معاشرتي، وأصبحت تفكر في تماثيلك أكثر مما تفكر في أنا.. كما لو كانت أقل من هذه التماثيل جمالاً وفتنة وحيوية وعاطفة.. أما ترى أنني مستعدة كي أحقق كل رغبة لك وأرضخ لكل شرط من شروطك.. ولكنك تأبى أن تتقبل مني شيئاً، لقد رفضت ما عرضته عليك من أن أشركك معي في الملك والعرش.. وما رغبت في أن تكون إلهي الذي أتعبده في هيكل أقيمه من أجله خاصة.. بل، وما عدت تتنازل فتبدي إلي من الحب ما كنت تبدي سابقاً.

واعتدلت في جلستها.. ثم عادت تميل عليه قائلة في توسل:

– إنني لا أحجم عن عمل أي شيء في سبيل أن أراك في القصر.. ألا

خبرني أيها الحبيب إذا كنت قد مللتني.. فمن هذه التي أسرتك فأجعل منها صديقة لي.. إن بلاطي مليء بالنساء الجميلات.. فتخير من بينهن من تحب.. أهبها لك.. وإن لدي لألف جارية من شتى أنحاء العالم، فحدثني عمن تشتهيها منهن.. أقدمها إليك في مثل زينتي وثيابي وذهبي وفضتي.

ولكن.. لا.. إنك وإن كنت أجمل الرجال.. فأنت أقساهم قلباً وأبردهم عاطفة.. إنك محبوب الجميع،ولكنك لا تحب أحداً.. بل تقتصر على إبداء الشفقة على من تلمح في أعينهن نظرات الحب الوالهة.. إنك تسمح لي أن أعبدك، ولكنك لا تسبغ علي شيئاً من العاطفة الحقيقية الصادقة.

آه!. آه!.. أيتها الآلهة! لقد تماديت في أذلال نفسي لهذا القاسي الجاحد.. ألا فأعلم أن لدي في القصر رجالاً أشداء..كما أن لدى نساء جميلات.. وإنني لن ألبث أن أتناساك وأتناسى جمالك الفاتن.. لو إنني تخيرت منهم عشاقاً لإشباع عواطفي، ولكنني في اليوم الذي أتحقق فيه إن لم يعد أمامي من سبيل سوى البحث عن سواك.. لن أتردد عن إلقائك في اليم.

آه.. كم هو جميل أن تكون المرأة ملكة ذات سلطان.. في مثل هذه الأحوال!

واعتدلت، وترقبت، ولكنه ظل جامداً، صامتاً، فلما عادت تطالبه بالكلام، اتكأ على مرفقه، وقال في غير اكترات:

– لقد وأتتني فكرة أقصوصة سأسمعك إياها، فقد كانت طروادة قبل أن يغزوها أجدادنا.. مأهولة بالحيوانات المفترسة.. وببضعة رجال يعيشون في صراع مروع بين بعضهم البعض.. وبينهم وبين الوحوش، وكانت هذه رائعة الجمال.. بينما كان الرجال صغار الأجسام.. فطس الأنوف.. يعيشون في جحور يسدون منافذها بالصخور الضخمة الثقيلة.. ويقضون العمر في الصيد.. وفي التحايل على صراع الهوام والحيوانات المتعطشة لدمائهم التواقة لالتهام لحومهم ، وكانت ثمة لعنة من الشر ترفرف على البلد، فهجرتها الآلهة.. وتحولت الشمس من طريقها.. ثم حدث أن هبط البلد ذات يوم.. رجل ليس كرجالها المتوحشين.. يرتدي ثوباً أبيض.. تنسدل أطرافه حتى تغطي قدميه.. وكان هذا الرجل يحب التجوال في الليل.. تحت أشعة القمر.. خلال الغابات.. ممسكاً في يده قيثارة.. ما تمس أصابعه أوتارها، حتى تنبعث منها موسيقى عذبة كألحان الربيع.. أو همسات الريح للأفنان ، ففي أول مرة انبعثت ألحانه هذه في الغاب.. استيقظ ثلاثة نمور من نومها.. وقد أذهلتها النغمات الساحرة، فراحت تقترب منه.. دون أن تمسه بأذى.. إلى أن فرغ من عزفه، فانسحبت عائدة إلى مخابئها.

وفي الليلة التالية.. تزايد عددها وانضم إليها بعض الذئاب والضباع والحيات.. وما هو إلا زمن قصير حتى أصبحت الحيوانات تأتيه من تلقاء نفسها.. تسأله أن يعزف لها... مقدمة إليه لقاء ذلك الطعام.. وعاملة على حمايته من بأس رجال البلد.

بيد إنه ما لبث أن مل هذه الحياة التي أخذت تجرى على وتيرة

واحدة.. واغتر بنفسه.. فراح يضن على الوحوش بأنغام عذبة سائغة.. ثم جاء اليوم الذي أخذ يبخل عليها حتى بهذه الأنغام.. فلم يعد يعزف لها.

وتملك الأسى الغاب بأسرها.. ولكن الوحوش رغم ذلك لم تمسك عنه ما كانت تمده به من طعام وحمايةوحب.. وفي ذات يوم.. بينما كان واقفاً بباب داره يرقب مغيب الشمس.. رأى لبؤة تمر بالقرب منه.. فتصنع الرغبة في العودة إلى داخل الدار.. كأنما هو يخشى أن ترهقه بإعجابها وإلحافها.. ولكنها لم تبد أي شعور بوجوده.. بل مضت في طريقها ببساطة ، وإذ ذاك.. سألها مأخوذاً: "لم لم تسأليني أن أعزف لك؟"

فأجابته إنها لا تأبه لعزفه.

فصاح: "أو لا تعرفين من أكون؟"

قالت: "إنك أورفيوس".

قال: "ومع ذلك لا تودين سماع ألحاني؟. أوه، ما أشقاني إنك الوحيدة التي كنت أود أن أعرف من أجلها.. إنك أجمل من في الغاب، وما من أحد يفهمني أكثر منك.. آه، لو أنك خصصتني بساعة من وقتك، لأسمعتك ما لا تحلمين به من أنغام!"

ولكنها أجابت: "إذا شئت، فعليك تحقيق ثلاث طلبات لي.. أن تسرق اللحوم التي أعدها رجال السهل لغذائهم وإن تقتل أول رجل تقابله، وأن تأخذ القرابين التي قدموها للآلهة، فتطرح كل هذا عند قدمي".

فما تردد عن أن ينفذ مشيئتها. ومن ثم، قضى ساعة في العزف لها..

ولكنه بعد ذلك حطم قيثارته، وعاش كشخص ميت، لا يكاد يحس بالحياة.

فتنهدت الملكة قائلة:

– ليس بوسعي أن أفهم الأحاجي يا حبيبي

فقال وهو ينهض:

– ما قصصتها عليك أتفهميها، وإنما لتهدئ من أساك. والآن. وداًعا يا بيرنيس.

فراحت تنتحب قائلة:

–كنت واثقة من هذا!

ولكنه لم يحفل بدموعها، بل أرقدها في رفق بين الحشيات والوسائد المعدة لها في المحفة، ثم طبع على عينيها قبلة وهو يبتسم، وهبط في هدوء دون أن يستوقف العبيد.

القسم الثالث

مأدبة باكيس

كانت باكيس تقترب من العام الأربعين من عمرها. وقد مضى عليها أكثر من خمسة وعشرين من هذه الأعوام كغانية تبيع جسدها لطلاب اللهو والمتعة. ولقد نشأت منذ حداثتها على التدبير والاقتصاد، كي توفر لنفسها ثروة تفيد منها في سني الكهولة وخريف الحياة.

لذلك اقتصرت من العبيد على جارية زنجية، ما لبثت أن أنجبت سبع بنات رائعات الجمال، وثلاثة أولاد.. وقد باعت باكيس الأولاد إذ كانت تعرف أن الذكور من الخدم قد يعشقون سيداتهم، وقد تستبد بهم في بعض الأحايين الغيرة عليهن.. أما البنات، فقد دعتهن بأسماء الكواكب السماوية السبعة.. وأناطت بكل نوعاً من الخدمات يتناسب قدر الإمكان مع اسمها.

فكانت هليوت خادم النهار، وسلاميس خادم الليل.. وأريت حارسة الباب وأفروديسيا وصيفة المخدع، وهرميون المكلفة بتسوق لوازم البيت، وكرونوما جيراً الطاهية، وديوميد رئيسية الخدم والمشرفة على نفقات الدار وحساباتها.

على أن أفروديسيا كانت أحب الجواري إليها، وأرشقهن جسماً، وافتنهن جمالاً، حتى إنها كانت كثيراً ما تشاطر سيدتها في القيام بإكرام زائريها وتقديم الحفاوة اللازمة لهم، ولذا كانت معفاة من أي عمل يشوه بهاء يديها وذراعيها وكان لها أن تعقص شعرها.. وأن تبالغ في زينتها، حتى

أن الكثيرين ما كانوا ليظنوا إنها جارية رقيق، وحتى لقد عرض على باكيس خمسة وثلاثين مينا لتحريرها.. واحتفاء بهذه المناسبة.. رأت باكيس أن تقيم الحفلة التي دعيت إليها كرايزيس.

وكانت كرايزيس أول من وصل إلى دار باكيس من المدعوين والمدعوات.. في ثوب أخضر.. موشي بالزهور والأغصان المطرزة على صدره.. وسألت أرأيت– حارسة الباب– وهي تقودها إلى قاعة المأدبة:

– ومن مدعوكم الليلة؟

– لقد دعي نوكريتس فيلوديموس وعشيقته فوستينا التي أحضرها من إيطاليا.. كذلك دعي فراس سيلاس وتيمون.. وصديقتك سيسو...

وأقبلت سيسو في تلك اللحظة... فصاحت:

– كرايزيس.. أهلا بحبيبتي!

وتعانقتا في غبطة وهناءة لاجتماعهما في هذه الفرصة غير المنتظرة.. وراحتا تتحادثان في ود.. كل تسأل الأخرى عن أحوالها وتفضي إليها بشكاياتها.. وهما منشغلتان في تجميل وجهيهما وتنسيق زينتهما.. ثم تحولتا إلى قاعة المأدبة، فإذا باكيس قائمة في وسطها.. وقد طوقت الحلي الذهبية ذراعها وجيدها.

وصاحت إذ رأتهما:

–أهلا بالعزيزتين الجميلتين.. كانت فكرة بديعة من نوكريتس أن يدعوكما الليلة.

فأجابت كرايزيس، وفي نفسها غاية خفية:

- شكراً.. وكيف حال دور يكلوس؟

كان دور يكلوس فتى من الأثرياء، عشق باكيس حيناً، ثم هجرها ليتزوج من غيرها.

وقالت باكيس في تصنيع:

- لقد طردته، يقولون إنه يوشك أن يتزوج: ولكني أؤكد لك إنه في غداة زواجه، سيجد قدميه وقد قادتاه إلي، إنه كلف بي مستهام.

وودت كرايزيس لو استطاعت أن تسألها عن المرأة، وتمنت لو ترى ما تتحدث به عيناها.. ولكن باكيس كانت تحول نظراتها عنها.. فما لبثت أن كبحت زمام الفضول الملح الذي تولاها.. وآثرت أن تترك للصدف أمر إجابتها.

وأقبل فيلوديموس وفوستينا.. ثم ظهر نوكريتس في القاعة، وانتظم الجميع حول المائدة.. فما لبث أن وافاهم سابعهم.. وهو شاب يدعي تيمون.. تمنى الكل لو أنه لم يأت، إذ كان لفرط حذلقته يثقل على كل من يعرفه.

وتلفتت باكيس حولها.. ثم تساءلت:

- ألم يأت قراسيلاس؟

وإذ ذاك تقدم منها رجل صغير الجسم، ذو لحية زاحم الشيب سواد شعرها.. فقال مبتسماً:

– لقد حضرت من زمن..

كان فراسيلاس من الكتاب الواسعي الشهرة، وإن لم يعرف له أحد رسالة خاصة.. أو نحوا معينا ينتحية في كتاباته. فكان لدى رجال الفكر شاعراً.. ولدى الشعراء حكيماً.. وفي رأي المجتمع شخصاً من عظماء الرجال.. فحسب!

وتحول تيمون إلى فيلوديموس يجاذبه الحديث:

– يقولون إنك من أقرب أصدقاء شيشيرون.. فما رأيك فيه؟

– الواقع أن صداقتي هي أول ما يحول بيني وبين الحديث عنه.. لقد عرفته كل المعرفة، وهذا ما جعلني أقف على مواطن الضعف منه، ولكن.. سل فراسيلاس ففي وسعه أن يعطيك رأياً أقرب إلى الصواب، لأنه لم يقرأ له كثيراً...

فأجاب فراسيلاس:

–الواقع إنه كاتب فذ

– وكيف توصلت إلى هذا الحكم؟

– لكل امرء ناحية يستثير إعجاب الجميع بتوفيقه فيها.. وقد اعتدت أن أقدر الكتاب الذي يترك سطر واحد منه فكرة في ذهني بعد أن أطبق دفتيه.. فإلى اليوم.. ترك سطر من كل كتاب فكرة في رأسي، ولكنني لم أجد الكتاب الذي يضم سطرين من هذا النوع.

وضربت سيسو المائدة بطرف مروحتها صائحة:

– تيمون، لم تثير مثل هذا السؤال الممل؟.. أتظنك بهذا تبهر أذهان النسوة الحاضرات؟.. لعمري إنك لعلى ضلال، إن حول هذه المائدة أربع غانيات، وأرى أن على الرجال أن يتركوا لهن دفة الحديث، فروستينا، إنك الضيفة الجديدة بيننا.. فمن حقك أن تبدئي.

وأمالت الحسناء الرومانية رأسها، وتطلعت في وجه سيسو وحمرة الخجل تصبغ وجنتيها، ثم تنهدت قائلة:

– فليكن حديثنا عن الحب.

صاحت سيسو وهي تكتم ضحكة:

– موضوع بديع..

قال فراسيلاس:

– الحب كلمة لا معنى لها.. أو هي كلمة تشمل كل المعاني مرة واحدة، إذ تتضمن نوعين من الأحاسيس.. الغواية والعاطفة، ولست أدري عن أيهما تريد فوستينا الحديث؟

قالت كرايزيس:

– فليشملهما الحديث معاً.. إنني أريد أن أسمع الآراء عن الغواية من أجل نفسي، وعن العاطفة لأعرف حقيقة عشيقي..

قال فيلوديموس:

– ما الحب بالغواية. لا ولا هو بالعاطفة.. إنما هو شيء يختلف عن كليهما

فصاح تيمون:

– بحق الآلهة لا تعكروا صفو هذه المأدبة بأحاديث الفلاسفة

واحتدم النقاش بين تيمون وفيلوديموس، فتحركت كرايزيس في مجلسهاوالتفتت إلى تيمون ، فوضعت يدها البضة على عنقه وسألته:

– ألا حدثني.. ما هي غاية الحياة؟

كان سؤالاً جديراً بأن توجهه إلى الفلاسفة الذين كان تيمون يطالب بإقصاء آرائهم عن أحاديث الليلة، ولكن الحنان والرقة والتلطف التي بدت في صوت كرايزيس..كل هذه هفت بقلبه، فتحول إليها يقول:

– لكل حياة غايتها الخاصة يافتاتي، فليست ثمة غاية مشتركة.

فصاحت سيسو:

– تيمون، إنك تثير الاشمئزاز بسلوكك، إذ تقطع حبل الحديث السابق.. ألا دع نوكريتس يتولاه .

قال نوكريتس:

– وماذا أقول عن الحب؟ إنه لقب أطلق على الشجون عزاء للمعذبين.. ليس هناك غير سبيلين للشقاء.. اشتهاء ما ليس ملكاً للمرء، وامتلاك ما يشتهي المرء! أجل.. والحب، يبدأ كالسيل الأولى، وينتهي كالثانية، في أغلب الأحوال.

قال فياء ديموس:

– ولكن ما رأيك في امتلاك ما لا يتوقع المرء تملكه.. إلا تراه نوعاً من الشقاء؟. ألا فاستمع لي بانوكريتس.. أن خير طريق هو أن لا يشتهي المرء شيئاً .. بل أن يستغل الفرصة التي تتاح له من تلقاء نفسها.. أن لا يحب، بل يتخير عن كثب أشخاصاً ممتازين، يحس نحوهم بميل قد تحوله حرارة الظروف والفرص إلى رغبة واشتهاء..إياك وحب امرأة لها ما تتمني من مميزات، أو من جمال يجعلها لغزاً غامضاً.

كانت الموسيقى إذ ذاك قد سارت إلى نهاية مرحلتها الأولي، وكان العشاء قد أوشك بدوره على الانتهاء.. وقال نوكريتس بعد أن أحتسى كاسه:

– إن أعظم اللحظات في عمر الهوى لهي تلك التي ينزاح فيها الستار عن حقيقة نفس الحبيب، ولعله من الخير للنساء أن يعلمن ذلك.. أهناك ما هو آلم للنفس من شعر ناعم غزير تبدو في ثناياه آثار المكواة الحامية؟ أهناك ما هو اجدر بالرثاء من عين جميلة، بشوههما سواد الكحل؟ إنني أدرك أن كل امرأة تسعى إلى أن تحوط نفسها بحلقة من المعجبين، ولعل هذا ما يجعلها تتحاشى أن تكشف عن حقيقة جمالها.. بيد إنه من القبيح حقاً، أن تعمد في ذلك إلى وسائل التجميل والأغراء ، تقضي على هذا الجمال الطبيعي.

فقاطعته كرايزيس:

– إنك لا تعرف شيئاً في هذا الصدد بانوكريتس..ما كان أي رجل لينظر إلينا لو لم نصبغ شفاهنا ووجناتنا بلون الشفق أو الورد القاني.. إن في

الأسكندرية خمس عشرة ألف امرأة، تستعر بينهن المنافسة على اجتذاب قلوب الرجال، ولن يقدر لإحداهن الفوز على زميلاتها إلا باتخاذ هذه الوسائل.

- ألا تعرفين أن الجمال الطبيعي النقي، لا حاجة له بالزينة، فهو كاف بنفسه؟

- حسناً، ولكن..كيف يتاح للجمال الطبيعي أن ينزل إلى ميدان المنافسة؟ كيف تثق امرأة بنجاح سحرها الفطري، وهي ترى منافساتها يعمدن إلى الوسائل غير الطبيعية لزيادة فتنتهن؟

قالت سيسو:

-إن الرجال حمقى!

- لا، بل مجرد كسالى، لا يجشمون أنفسهم هناء تخير عشيقاتهم.. أكثر النساء استئثاراً بعواطفهم هن أكثرهن خداعاً لهم.

وفي تلك اللحظة، نفذت إلى القاعة اثنتا عشرة راقصة كانت الأوليان منهن تعزفان على الناي، بينما مضت الأخيرة تدق طبلاً، ورحن يرقصن في افتنان، تارة يمتزجن كأمواج البحر، وأخرى يتناثرون كرمال الشاطئ.

وتطرق تيمون بالحديث، وقد عاودته الحماسة.. قال:

- أعتقد أن المرأة المتزوجة، إذ توقف نفسها على رجل واحد لا يتورع عن خداعها، رافضة الاتصال بسواه، وإذ تحمل أجنة يشوهون جمال جسمها، ثم تلدهن أطفالاً يستأثرون بكل حواسها واهتمامها وحياتها

زاعمة إنها بمثل هذا تعد أمينة مخلصة.. أعتقد إنها إذ تفعل كل هذا إنما تقضي على حياتها، وإنما تقدم بالزواج على الارتباط بعقد غابن لها.

ومال على كرايزيس يداعبها، بينما عادت الراقصات إلى رقصهن، فصاحت به في خفوت:

– دع هذا المجون يا صديقي، وإلا رأونا، فتغضب باكيس.

ولكنه لم يرعو أو ينثن، بل تمادى في جرأته، ودفع بكيس من النقود إلى يدها، فصاحت في حنق وغضب:

– كفي.. إنك تضايقني.. دعني!

وقفزت من مجلسها، فاندفعت مغادرة القاعة.

أفروديسيا

ما كادت كرايزيس تغلق خلفها باب الحجرة التي لجأت إليها فراراً من غزل تيمون البغيض حتى أحست بقلبها يخفق في عنف، وبالفضول يغشاها في الحاح حيرها.. ترى أن يقدر لها أن تعرف ما إذا كانت مرآة باكيس قد سرقت أم لا ؟

وأحست بجو الدار يكاد يخنقها، فانطلقت إلى الطريق.. ولكن الجو كان ثقيلاً راكداً فما انبعثت منه نسمة واحدة تجفف العرق الذي كان يتصبب على وجهها.. ولكنها خففت من حيرتها، إذ أطلقت في السكينة– التي كانت تحوطها وهي تخطر في الطريق– أفكارها فاندفعت كحمائم حبيسة فتح باب محبسها ذات يوم، فلما عادت كرايزيس إلى دار باكيس ثانية، كانت الغيوم الملبدة في صفحة جبينها قد انقشعت، وغادرها الضيق والبرم..

ووجدت ثمة أصدقاء جديدين قد أقبلوا يشهدون حفل باكيس، وقد حمى وطيس الرقص حتى كادت الرقصات الاثنتي عشرة تتناسين أنفسهن في غمرته، وتشبع جو القاعة ببخار الكحول المتصاعد من النبيذ، وقد ثمل بعض الرجال، فراحوا يغازلون الراقصات في جرأة وقحة.

وصاحت روديس وميرتوكليا وقد رأتا كرايزيس تضرعان إليها أن تصحبهما بعيداً عن هذا الجو الصاخب العابث، ولكن كرايزيس انصرفت

عنها إذ رأت فجأة، منظراً زين للراقصات الثملات أن يقمن به تسلية للحضور ورغبة في إضحاكهم، فقد حملت اثنتان منهن إلى القاعة وعاء كبيراً، مليء حتى حافته بالنبيذ، ثم أمسك أحد الحضور بقدمي تيانو عازفة الناي– أخت روديس– وقلبها رأساً على عقب، ثم غمر وجهها في وعاء النبيذ وأمرها أن تشرب منه! وانفجر الحضور في عاصفة صاخبة من الضحك، واستوت تيانو أخيراً على قدميها وقد احتقنت الدماء في وجهها، الذي تقاطرت منه قطرات النبيذ الذي علق به، وصاحت باكيس ضاحكة:

– سلاميس، إلى بمرآة، لترى فيها اللعينة وجهها! بل هات مرآة رودوبيس الفضية، فالفتاة تستحق أن تتطلع لصورتها فيها.

وقفزت كرايزيس على قدميها وتدفقت الدماء إلى وجهها، ثم ما لبثت أن هربت منه، فوقفت شاحبة اللون، مرتجفة الأوصال، خافقة القلب، تنتظر عودة الجارية، وكأنما كانت حياتها تتوقف على ما تجيء به، كان أملها الأخير مقبلاً على لحظته الحاسمة، إما تحقق، وإما تحطم!

ولكن غيبة الجارية طالت، فكادت كرايزيس تفقد شجاعتها، ووجدت نفسها تحصي الدقائق عداً، ومضت تعبث بأصابعها، وهي تائهة العقل، حتى كادت في غير وعي منها، أن تكسر إحداها

وندت عن باكيس صرخة حادة ثاقبة، فرضت على الحاضرين صمتاً دونه صمت الموت.. وتجمع الحضور حول ربة الدار التي وقفت وسط القاعة جامدة، بينما ركعت الجارية عند قدميها، ترتجف خوفاً.

وصاحت باكيس وهي تهز الجارية في عنف: أتقولين أنها..

سرقت!إذن،أنت السارقة.. أجيبيني! ألست أنت؟ سأسوطك حتى تحل عقدة لسانك!

وإذ ذاك، تطور الموقف تطوراً عجيباً مروعاً.. فقد تملك الجارية خوف أطاش رشدها، ففكرت في مخرج لها تنجو منه من العقاب الفظيع.. وفي لحظة الجنون، لم تجد من مهرب سوى إلقاء الاتهام عن عاتقيها فصاحت:

– إنها أفروديسيا السارقة.. لست أنا!

– أتتهمين أختك؟

– التي كانت تنتظر حريتها بعد سويعات قلائل.

وفي اللحظة التالية، سحبت الجواري أختهن بإشارة من مولاتهن، فألقين بها عند قدميها، وقد وجدن فرصة للإفراج عن ذلك الحقد الذي كان يحتبسنه في صدورهن، لما كانت تلقاه أختهن من إيثار مولاتهن وإعزازها، ولما كان متوقعاً لها من حرية وهناءة.. فصحن:

– يالافروديسيا التعسة الشقية! هي التي أخذتها! يا للصة الخائنة!

– وأين هي؟ أين وضعتها؟

– لقد أعطتها لعشيقها

– ومن هو؟

– أحد البحارة.. لقد أبحرت سفينته هذا المساء إلى روما.. لن ترى مرآتك ثانية بعد اليوم.. يجب أن تصلب هذه الخائنة السارقة.

ومضت باكيس تبكي مرآتها في أسى ما لبث أن تطور إلى ثورة جائحة من الغضب.. فأمرت الجواري أن يسحبن أختهن إلى صليب كانت قد أقامته في طرف من البيت لإرهابهن إذا ما حدثت أحداهن نفسها بخيانة مولاتها.وتبعهن الضيوف وبينهن كرايزيس الوحيدة التي كانت تعرف سر الجريمة .

وبين تمتمة الاستياء وهمهمة الاستنكار، حملت أربع من الجواري أفروديسيا إلى الصليب.. وما زالت الفتاة مطبقة شفتيها، لاتنبس بكلمة واحدة.. ولكنها ما كادت تحس رطوبة الخشب تسرى إلى ظهرها، حتى اتسعت حدقتاها، وانبعث منها أنين ظل يرافقها حتى آخر أنفاس.

وراحت شقيقات أفروديسيا يربطنها إلى الصليب وينشرن عليه ذراعيها، وكرايزيس ترقبهن صامتة، لا تجد وسيلة لانقاذ الفتاة البائسة، إلا باتهام ديمتريوس، الذي ما كان في وسع القانون أن يقتص منه، والذي كان في وسعه أن ينتقم منها أشنع انتقام لو إنها فضحت سره.. وإلى جانب هذا.. كانت افروديسيا– كجارية– جزءاً من ثروة باكيس.. وكم يسر كرايزيس أن تقدم غريمتها على تضييع هذه الثروة بيديها في لحظة من لحظات الغضب.

وصعدت باكيس سلما رفعها إلى قمة الصليب. وناولتها هليوب مسماراً، تحولت تدقه في إحدى راحتي الفتاة في وحشية بعثتها في نفسها الخمر التي أفرطت في احتسائها.. وثورة الغضب التي كانت تجتاح نفسها.. وندت من الضحية المسكينة صرخة جزعة مرتاعة، فلم تزدد باكس إلا

وحشية، فأردفت المسمار بأخر في راحة اليد الأخرى، ثم بثالث ثبت قدمي الفتاة، إحداهما فوق الأرض.

وتطلعت باكيس إلى الدماء المتدفقة من الجراح الثلاثة ثم صاحت:

– ما هذا بالكافي؟ انتظري أيتها اللصة! صبراً يا محظية الملاح!

وأخذت تنتزع من شعرها الدبابيس الطويلة التي تزينه فتدفعها في عنف في جسد ضحيتها.. حتى إذا نفذت الدبابيس، تحولت كلبؤة ضارية تخدشها.. وتغيب أظفارها في لحمها.

وهدأت أخيراً ثورتها. فتحولت وفي أثرها ضيوفها، إلى القاعة الكبرى..

ولم يبق مع الضحية المسلوبة غير.. تيمون، الذي وقف يلفه الأسى والوجوم، وتمر بذهنه ذكريات الساعات الهانئة التي قضاها مع هذه الفتاة المنحوسة الحظ، فيما مضى.. ورفع يديه إلى عينيه يتحاشى المنظر المروع.. وأحس بجسد التعسة يرتجف فوق الصليب، فكافح عواطفه حتى استطاع أن يتطلع إليه.. كانت الدماء تتقاطر من الجراح التي أحدثتها المسامير، فتسيل في خطوط متعرجة قانية.. وراح رأسها يتحرك في تململ لا ينقطع.. وقد انساب شعرها على جانبيها ملطخا بالدماء، مضمخاً بالعطور، مبللاً بالدموع.. وهتف في ألم وحزن:

– أفروديسيا.. أتسمعينني؟ أتعرفينني؟ أناتيمون

وألقت عليه نظرة خابية.. وارتجف جسدها، وتقدم الشاب في خفة وحذر، وكأنما كان يخشى أن تزعج خطواته الجسد المحتضر.. وصعد إلى جوارها، فاحتوى الرأس القلق المتململ بين راحتيه، ونثر على الوجنتين، والشعر والشفتين الغارقة في سيل الدموع الصامتة قبلات حارة كلها حنان وعاطفة.

* * *

وأطبقت أفروديسيا أجفانها.. تري أعرفت ذلك الذي جاء في اللحظة الأخيرة يواسيها بهذا الحنان الطاغي؟ وشاعت في وجهها ابتسامة نمت عن الارتياح.. وفي زفرة ناعمة، انطلقت روحها مغادرة الجسد المعذب.

أحلام!

إذن فقد حقق ديمتريوس رغبات كرايزيس.. وها قد رأت الدليل، فقد استجاب لأولى طلباتها، وهو لابد قد اتبعها بالآخريين، فإن أي رجل في مثل مكانته، يرى القتل أخف وطأة من السرقة التي تصم صاحبها بوصمة أبدية من العار والذلة والضعة..

لقد رضخ لمشيئتها.. وإذن فقد استكان لقيود غوايتها وارتضى أن يغدو عبداً رقيقاً لها لسارة، فتاة "الناصرة" اليهودية! وودت كرايزيس لو أتيحت لها خلوة تنفرد فيها لتصيح في صوت عال داو، صحة الفوز، تمتزج به الفرحة والحبور..

وتسللت من منزل باكيس، فانطلقت في الطريق الخالية المؤدية إلى البحر، والتي كانت تلوح لها في نهايتها، شراع مئات المراكب الرأسية في الميناء، تشمخ بأنفها في الهواء.. ثم عرجت على يسارها إلى طريق "دروم" حيث كان ديمتريوس يقطن.. وسرت في جسدها هزة زهو وخيلاء حين مرت بالدار، ولكنها كانت أحرص من أن تسعى إليه، قبل أن يسعى هو إليها.

وخلفت في طريقها باب "كانوب" فغدت خارج المدينة. ثم انتقت لنفسها مكاناً منعزلاً فتهالكت على أرضه، وتركت لأفكارها العنان..

لقد لبى ديمتريوس نداءها، ورضخ لرغباتها، ففعل أكثر مما فعل أي

عاشق سواه من أجل معشوقته.. أي فخر لها.. لقد عرض ديمتريوس نفسه لكل خطر ولكل عار، طائعاً مختاراً لإرضائها، وهو المحبوب من مليكة البلاد.. وهو فارس أحلام الكثيرات من النساء، وأحسست كرايزيس أن من حقه عليها أن تحبه، وأن تعبده، فهتفت: "ألا خذني إليك!" وتبدت لها الجرائم الثلاث، كأعظم أعمال البطولة التي عرفها العالم منذ خلقه..وراحت تتصور الحب المشتعل المستعر المتأجج الذي سيلهب قلبيهما بنيران حبيبة إلى نفسيهما.. إلى الأبد! لسوف، يترك معها مدينة الملكة، فيبحران إلى بلد آخر يقيمان فيه دنيا أحلامهما البهيجة.

* * *

وتولاها حنين طاغ استبد بها، وقض عليها جلستها ، فقامت تسعى إلى بيتها.. وكم دهشت إذ وجدت كل شيء فيه لم يتغير عما تركته عليه بالأمس، فأقبلت تحطم الأشياء التي تذكرها بالماضي، أو بأصحابها من عشاق الليلة الواحدة .

وتحررت من لباسها.. وفكت قيود شعرها، فانسابت خصلاته تلقي على كتفيها وشاحاً ذهبياً ناعماً.. وتهيأت لتلقي بنفسها إلى أحضان فراشها، لولا أن رغبة طارئة حببت إليها الصعود إلى سطح دارها.

كانت الشمس لم تطلع إلا منذ لحظات قصيرة على المدينة، التي بدت لعينيها مستسلمة إلى الرقاد.. وتطلعت كرايزيس إلى الدور الهاجعة، والطرقات الخاوية الخالية، وللحدائق الوسنانة.. ولكن عقلها كان شارداً.. يفكر في الحبيب الذي ستنتزعه من أقوى امرأة في المدينة.

وتسربت إلى ذهنها فجأة، فكرة جريئة، راحت تقوى وتتأصل، لم لا يقدم ديمتريوس الذي قام بكل هذه الأعمال الجسام من أجلها، على قتل الملكة؟ وإذ ذاك تغدو الإسكندرية، مدينة بيرنيس وملوك البطالة السبعة، وحلم كل عاهل، الإسكندرية التي توجت نصر الدول المتعاقبة خلال ثلاثة آلاف سنة، في ممفيس وطيبة وأتينا وكورنته، ثم الدلتا والنيل، والعالم المجهول الممتد خلفهما، إذ ذاك، تغدو كل هذه المملكة الواسعة المترامية الأطراف، ملكاً لكرايزيس الغانية!

وأحست إنها توشك أن تختنق، ورفعت ذراعيها وكأنما خيل إليها إنها ستمس السماء بأناملها، وفيما هي تتحرك، رأت طائراً ضخماً، ذا جناحين أسودين، يمر إلى يسارها متباطئاً يحلق متجهاً إلى المحيط المترامي الأطراف المبسوط فوق المدينة، إلى السماء.

كليوباترا

كان للملكة بيرنيس أخت تصغرها، تدعي كليوباترا، غدت فيما بعد تلك الملكة الخالدة الصيت، التي ذبحت إمبراطوريتها، ثم انتحرت فوق جسدها الهامد..

وكانت إذ ذاك في الثانية عشرة من عمرها، لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سوف يغدو إليه جمالها، وما سوف يكون له من أثر في تاريخ العالم القديم، وكانت تعيش في حجرة واسعة بالقصر، تطل على البحر الزاخر، وتتصل بحجرة أختها الملكة، ببهو ذي أعمدة مرمرية..

ففي الليلة، التي شهدت الأحداث السابقة، استيقظت كليوباترا قبيل الفجر، من نوم قلق وأتاها بعد سهاد طويل، فطرحت على جسدها غلالة حريرية هفهافة، وتزينت بما اعتادت أن تتزين به من حلي وجواهر، ثم سارت في تؤدة وخفة، حتى لا توقظ حراسها أو جاريتها، صوب مخدع أختها..

ووجدت بيرنيس مستغرقة في النعاس، وقد توسدت ذراعها، وطرح عليها مصباحان قائمان على جانب الفراش غلالة من ظلهما، فجلست كليوباترا على حافة الفراش.. وتناولت وجه أختها بين راحتيها وراحت توقظها متسائلة:

– أين عشيقك؟

وفتحت بيرنيس عينيها الجميلتين، وقالت:

– كليوباترا.. ماذا تفعلين هنا؟

فعادت تردد سؤالها في أصرار:

– أين عشيقك؟

– إنه ليس هنا.. آه يا كليوباترا!.. ما أقساك إذ توقظينني على هذه الحقيقة المؤلمة.

– وما السر في إنه لم يعد يبيت ليلة هنا؟

فتنهدت بيرنيس في أسي وقالت:

– إنني أراه متى أشاء.. في النهار.

– أو لم تريه بالأمس؟

– رأيته في الطريق وأنا في محفتي فصعد إلى جانبي

– ولكنه لم يمكث معك حتى عودتك إلى القصر.. أليس كذلك؟فماذا قلت له..؟

– كنت غاضبة مهتاجة، فقسوت عليه في القول، ولكنه كان صامتاً لا يجيب.. حتى إذا استبد بي الغضب مضى يقص على خرافة لم أفهم منها شيئاً، ثم خلف المحفة ومضي..

– ولم لم تأمري برده إليك؟

– خشية أن أسيء إليه أو أؤلمه..

فتخلت كليوباترا عن اللهجة الساخرة التي كانت تتعمدها، وأمسكت بكتفي أختها.. تحدق في عينيها وهي تقول:

– ماذا؟ أتعجزين عن السيطرة على الرجل الذي تهوين، وأنت ملكة البلاد ومعبودة الشعب

ومالكة نصف العالم؟

– ولكن الحبيب لا يحكم كالعبد الرقيق؟

– ولم لا..؟

– ليس بوسعك أن تفهمي.. أن الحب ليس غير الشعور بإيثار سعادة غيرك على هناءتك أنت، فإذا كان ديمتريوس راضياً.. كنت أنا الأخرى راضية: ولو كنت غارقة في سيل من دموعي.. لم يعد في وسعي أن أشتهي متعة أو مسرة لا يشتهيها، وإني لمغتبطة بما يهبنيه..

فصاحت الصبية:

–إنك لا تدرين كيف تحبين؟

فابتسمت بيرنيس في أسى، وتمطت في فراشها قائلة:

– آه!. يالك من طفلة غريرة!.. عندما تشعرين يوماً بحرارة عناق الرجل، ستدركين كيف تعجز الملكة عن فرض سلطانها على الرجل الذي تحب؟

– ولكنني أستطيع، فكيف بك أنت ؟

– وأين جربت قواك يا صغيرتي.. أبين عرائسك ودميك؟

فصاحت وكأنها تستعذب مفاجأة أختها بما يدهشها:

- بل مع عشيقي.. أجل.. أما تعرفين أن لي عشيقاً؟. ولم لا يكون لي حبيب ككل فتاة.. كما لك أنت، كما لأمي، كما لعماتي وخالاتي.. كما لأحقر المصريات! لم لا يكون لي عشيق، ما دمت لم تقدمي لي زوجاً؟ إنني لم أعد فتاة صغيرة إلا إنني أعرف في الحب ما لا تعرفين.. إنني لأحس بالخجل لأنك مليكتي.. أنت يا من تجعلين من نفسك عبدة وجارية لرجل!

واستوت الملكة في فراشها ، تنصت إليها في اهتمام.. ثم ألقت يديها على كتفي الفتاة المتمردة المتقدة العواطف وسألتها:

- إذن، فلك عشيق؟ ومتى ترينه؟

- ثلاث مرات كل يوم

- وأين؟

- أتريدين أن أفضي إليك.. كيف لم تعرفي؟

- لست أعرف شيئاً مما يحدث في القصر، فإن ديمتريوس هو موضع كل تفكيري، وهو شاغلي الأوحد.. إنه ذنبي ، إذ لم أرعك يا صغيرتي..

- فلتراقبي تصرفاتي إن شئت، فإنني لن أحجم في اليوم الذي لا أستطيع فيه تحقيق رغبتي، أو إنفاذ إرادتي، عن أن أقتل نفسي..

- لا تكوني حمقاء! إنك حرة، لك أن تفعلي ما شئت. ولكن، خبريني ألك عشيق أو تسيطرين عليه..؟ ومن ذا الذي علمك..؟

– علمت نفسي بنفسي، فليس من علم سوى ذلك الذي تمليه الغريزة الفطرية.. اتبعيني أرك كل شيء!

فنهضته بيرنيس من فراشها في تؤدة، وأسدلت على جسدها اللدن الجميل غلالة، ثم سوت شعرها، وتبعت أختها خلال الممر إلى حجرتها.. وهناك، رفعت الفتاة حشية فراشها، فتناولت من تحتها مفتاحاً وعادت تقود أختها، هابطة السلم، ثم عرجت على بهو ذي أعمدة، مجتازة ما صادفها في طريقها من أبواب، حتى أقبلت على سلم حجري، هبطت درجاته، إلى فناء مظلم مهجور.. وبيرنيس تتبعها. وانتهتا أخيراً إلى فناء مشرق بالنور، اجتازتاه إلى باب ضخم، ذي مزلاج حديدي ثقيل.. ورفعت كليوباترا المزلاج في قوة خارقة.. وأولجت المفتاح في ثقب الباب ، ثم أدارته.. وفتح الباب.. فإذا خلفه رجل عملاق.. ما كاد يراهما حتى هب واقفاً.

وبهتت بيرنيس. وهوى رأسها على صدرها، وتمتمت في رفق:

–إنما أنت يا طفلتي التي تجهل الحب وكيف تحب؟

– إنني أعرف على الأقل هذا النوع وأحبه.. فهو يبعث في نفسي السرور على الأقل..

ووقفت في مدخل الباب.. منتصبة القامة. ثم صاحت في الرجل:

– تعال.. قبل قدمي يا ابن الكلب!

فلما فعل، طبعت على شفتيه قبلة حارة.

القسم الرابع

حلم ديمتريوس

رأي ديمتريوس في نومه.. بعد أن عاد إلى بيته حاملاً المرآة والعقد والمشط.. حلماً عجباً رأى أنه يسير إلى الرصفة بين قاصديها وروادها في ليلة معتمة.. صفت سماؤها.. ووجد نفسه يجد في السير دون ما سبب، ليصل في أقرب وقت ممكن.. ولكن الهواء كان يقاومه ويعوقه في شدة غريبة.. كما أن قدميه كانتا تتثاقلان وتبطئان بالرغم منه.. وأحس أنه يرتجف وخالجه شعور بأنه لن يصل قط إلى الرصفة.. وخيل الله إنه لن يدرك قط إلى من هو مسبوق في هذه الظلمة القاتمة

وكانت جموع الرواد تختفي عن عينيه أحياناً.. ثم تعود.. يدفعه أفرادها بالمناكب.. وهم

يسابقونه.. وفجأة، رأى نفسه أخيراً عند الرصفة، وحيداً. وتلفت حوله فإذا القوم يلوحون عن كثب، ثم إذا بهم يعرجون على طريق أخرى، وأدرك أنهم لن يعودوا إلى مضايقته..

وهفت بنفسه الرغبة في الذهاب إلى فأروس.. وشد ما كانت دهشته حين أحس بأن التثاقل قد زال عن قدميه فراحتا تحملانه في أسراع.. ولكنه كلما اقترب من فاروس.. وجد أن الرصفة تمتد أمامه وتزداد طولاً.. وما لبث أن رأى قرص الشمس القرمزي الملتهب ينحدر نحو الأفق.. ثم يهبط خلفه في اتئاد، حتى يختفي.

وظل ديمتريوس سائراً..

وخيل إليه أن أياماً وليال قد انصرمت مذ غادر رصيف الميناء، وخشي أن يلتفت خلفه. فلا يرى غير المسافة التي قطعها.. والوحدة الشاملة الموحشة.. كان ينطلق في سبيله على غير هدى.. لا يدري مقصداً أو غرضاً..

وتراءت له الجزيرة.. وبدت له فيها امرأة تقف أمام البيت الوحيد الذي ضمته الجزيرة إلى أحضانها.. وقد أسبلت جفنيها، ولكنه لم يأخذ بغير منظر شعرها.. كان ذهبياً. ناعماً يسترسل كسبائك على كتفيها وعنقها. وكانت تلبس رداء أسود، كما لو كانت في حداد.. وعرف فيها كرايزيس، فعادت إلى ذهنه ذكرى مبهمة باهتة للمرأة والمشط والقلادة، ولكنه لم يصدق ما فعل في سبيل الحصول عليها، فقد تراءت له الحقيقة في حلمه حلماً، وسمعها تقول:

– تعال.. اتبعني..

وتبعها إلى داخل الدار التي كانت من طابق واحد يعلو عن سطح الأرض..

وقالت وهما لدى المدخل:

– إن بالبيت أربع حجرات سترى إنك لن تعثر قط على مثيلات لها..

وفتحت الباب الأول، وأغلقته خلفهما، فإذا هما في حجرة ضيقة طويلة.. ليس بها غير نافذة واحدة تطل على البحر.. وقد قامت إلى

اليمين والى اليسار منضدتان تحملان كتباً ومجلدات..

وقالت كرايزيس:

– ها هنا الكتب التي تحبها.. وليس من سواها. وتفحصها ديمتريوس كتاباً كتاباً.. كانت حقاً أحب المؤلفات إليه. وتلفت فإذا جارية صغيرة رشيقة، تضطجع وسط الكتب، بين حشيات وسائد وثيرة.وعادت تقول:

–أتبعني! أسرع!.

وفتحاً باباً آخر.. فإذا حجرة مربعة، ذات نافذة واحدة تشرف على مناظر طبيعية جميلة.. وقد قامت في وسطها منضدة تحمل كتلة من الطمي الأحمر.. وفي ركن من الحجرة، جلست في صمت، فتاة جميلة.

وقالت كرايزيس: ها هنا ستعمل في تماثيل اندروميدا وزاجريس، والخيل التي تجر موكب الشمس،وكما تصنعها بنفسك ستحطمها قبل موتك..

وهمس ديمتريوس لنفسه: ها هنا عش الهناءة

وفتحت كرايزيس باباً ثالثاً.. فإذا حجرة رحبة، مستديرة ذات نافذة تكشف عن السماء الزرقاء.. وقد علقت على جدرانها البرونزية، عدداً من الآلات الموسيقية وبضعة أنواع من الناي.. وفي أقصى الحجرة، جلست فتاة على عرش من المرمر الأخضر، صامتة جامدة..

وعادت كرايزيس تقول:

– هيا! تعال!

وفتحت باباً آخر.. كانت الحجرة الرابعة منخفضة السقف، تطغى الظلمة فيها على النور وذات شكل مثلث.. وقد فرشت أرضها بالا بسطة الثقيلة، وقطع الفراء الناعمة.. وامتدت الستائر المخملية على جدرانها، فلم يبد فيها ثقب عار.. وكان من العسير على أي أمريء، إذا ما أغلق بابها خلفه، أن يدرك إلى أين انتقل؟ لم تك بها نافذة قط.. كانت دنيا صغيرة ، في معزل عن دنيا الناس.. وقد علقت في عدة نواح منها أوان تذرف بين الحين والحين نقطاً من العطر كدموع الغواني ، ينساب متسامياً في الجو.. وانبعث فيها الضوء من سبعة مصابيح أرضية، متباينة الألوان..

قالت في صوت هادئ زاخر بالعاطفة:

– أترى؟ هناك سرير في كل ركن من الأركان الثلاثة في حجرتنا

لم يجب، ولكنه ساءل نفسه:

– أحقاً هذه النهاية؟ أحقاً هنا أبعد بقعة عن العالم المليء بالخلق والبشر؟.. وهل.. وهل بوسعي أن أغادر هذه الحجرة إذا أنا بت فيها ليلة واحدة؟

ولكن كرايزيس قطعت عليه حبل الأفكار قائلة:

–والآن أيها الحبيب.. لقد أصبحت رهن إشارتك، إلا أنعم النظر إلي..

ورفعت ذراعيها، باسطة راحتيها على شعرها الغزير، وتقدمته مبتسمة قائلة:

– أيها الحبيب، أنا الآن لك.. ملك يديك، لقد وعدتك أن أغني لك.. فلأغن أولاً..

لم يعد يفكر– وهو مستلق عند قدميها– في شيء سواها، وأمالت رأسها على كتفها.. وانفرجت شفتاها فانبعث منهما صوت شاك حنون..

"قد أنام، والقلب مني صاح.

"يستمع إلى صوت الحبيب.

"كم بحثت عنه فما وجدته.

"كم ناديته فما استجاب دعائي.

"إلا يا بنات أورشليم أن وجدتن حبيبي.

"فأخبرنه أنني من هواه عليل.. "

آه، إنها أنشودة الأناشيد يا ديمتريوس، إنها أغنية الأعراس في بلادي..

وطرحت برأسها إلى الخلف وقد رفعت عنها القناع، وأسبلت جفنيها على عينيها الساحرتين ومضت تغني له الغناء ألوانا، وقد أحمر وجهها كوردة ناضجة ناضرة..

ثم طفقت ترقص رقصاً ما رأت عيناه له مثيلاً من قبل، وجسدها يتلوى كالحية، وينثني كغصن البان، والنار التي تلهب وجنتيها تزداد ذكاء وتوقداً.. والعرق يتصبب منها غزيراً، فيسيل على الجسم الفاتن الصارخ بالغواية والإغراء..

وانتهت أخيراً، فوقفت ساكنة في منتصف الحجرة تحوطها كل عظمة يضفيها عليها جمالها..

و.. تعانقاً، عناقهما الأول، عناق شهي عذب، خالت كرايزيس فيه أن ذراعي ديمتريوس تحطمان أضلاعها، وتلاقت منهما الشفاه في قبلة خرت كل عذوبة اشتهتها العاطفة الإمرة المستبدة التي لا تعرف للقناعة معني.. وذابت روحاهما في النشوة الساحرة التي سرت في أعماقهما. أي قبلة! إنها لا تنتهي.. وكأنها لم تكن عسلاً وشهداً كما وصفها فلاسفة وأدباء.. وإنما كانت حياة وسحراً.. وبدت كرايزيس سعيدة.. ولكن الرغبة كانت تمضها.. وكأنها تعذبها.. فنحته جانباً.. وبسطت ذراعيها.. ولاحت شفتاها تتوسلان وتستعطفان.. فأمسك ديمتريوس بها في عنف وقوة، إن أولئك الذين رأوا المرأة تكشف عن حقيقتها وطبيعة نفسها بين ذراعيهم.. ليدركون أن أي ظاهرة من ظواهر الطبيعة.. لا تستطيع أن تستثير عجبهم كما تستثيره المرأة عندما تطرح كل رياء وزيف.. فقد انبعثت نظرات كرايزيس وسنانة.من ركني العينين اللتين ومضتا ببريق الشكر والعرفان.. وتألقت وجنتاها وكست الروعة كل سطر من صفحة وجهها..

وراخ ديمتريوس يتأمل في نوع من الخشوع والتعبد.. هذه القوة الخارقة التي أودعتها الآلهة، الطبيعة النسوية.. هذا التحول الرائع الذي يعتري كل كيان المرأة، وتجمعت خلف عينيه كل قوى الحياة.. وكأنما هو يستلهم من المرأة النشوانة.. الغارقة في غيبوبة اللذة.. تمثالاً يخنقه ويودعه كل سحره حتى ليبث فيه الحياة إن استطاع!

ذعر وفزع

وقفت ميليتا في غمرة الضوء الذي انساب من القمر فغرقت في سيله حدائق افروديت.. والبحر المترامي الأطراف.. وحيدة.. إلا من العجوز ساكنة الغاب.

وقالت شيمريس: لا تتبعي هذا الرجل.. إنك لن تريه ثانية.. وفي هذا الخير كله لك.. إن من يراه مرة واحدة يعرف معنى الأحزان والأسى.. أما من يراه مرتين فلن يلبث أن يداعبه الموت.

– ما الذي يحملك على هذا القول.. ما داعبني وأنا التي رأيته، ولم أجد سوى السرور والهناء وأنا بين ذراعيه.

– ما وجدت السرور إلا لأنك لا تعرفين الحب ولا كنهه يا صغيرتي، ألا انسيه وأغبطي نفسك لأنك ما زلت في الثانية عشرة من عمرك.

– إذن فالناس تشقى إذا كبرت، كل النساء هنا يتحدثن عن همومهن ويبكين.. وما عرفت غير امرأة سعيدة واحدة.. إنها صديقتي كرايزيس.. إنني أوقن إنها أبداً لا تبكي.

– لسوف تبكي..

– ويك يا نذير الشقاء! اسحبي ما قلته أيتها الشمطاء المخبولة.. وإلا مقتك.

وانفلتت ميليتا جارية، وهي ترتجف لفرط الانفعال. ولكنها ما ابتعدت

عشرين خطوة، حتى انفجرت ضاحكة وقد رأت عاشقين في غيبوبة عن العالم! بين الأشجار المتعانقة الفروع. وكان هذا كفيلاً بأن يحول مجرى أفكارها.فتحولت تتبع أطول الطرق المفضية إلى بيتها. ثم عولت أن لا تعود إلى البيت، فراحت تجوس خلال الحدائق التي كساها القمر بغلالة من السحر الرائع.. وكانت الليلة حارة والجو يزخر بالضحكات المرحة والأغنيات البهيجة.

وفجأة التقت ميليتا بصبي من أصدقائها يدعي ميكيلوس لاح لها أنه ضل طريقه خلال الغاب فعرضت عليه أن تقوده ولكنها راحت تزيده ضلالاً، لتستبقيه إلى جوارها.. وما غفل الصبي عن رغبتها، ولكنه أستعذبها فانصاع لها.. وراحا يتسابقان ويتبادلان المزاح والدعابات بين الأشجار. كزميلين أكثر منهما كحبيبين.

وأفضت بهما أقدامهما إلى حدود الحدائق العامة.. وأشرفاً على سياج من الشجيرات القصيرة.. يفصل بين حديقة أفروديت وحديقة كاهنها الأكبر.وشجعتهما السكينة التي كانت تلف المكان على أن يتخطيا السياج.. ورأيا شاطئ البحر على مقربة منهما، وقد تعانق طرف رماله ونهاية أعشاب الحدائق، عناقاً أبدياً لا يقظة منه.. واسترعى أعينهما آثار أقدام تراعت على الرمال.. على ضوء القمر الزاهي، فراحا يتبعانها وهما ماضيان في دعاباتهما ومزاحهما، وفجأة صاحت ميليتا:

– آه.. أنظر!

– ما هذا ؟

– إنها امرأة!

– إنها مستغرقة في السبات في مثل هذه البقعة!..

ولكن ميليتا هزت رأسها وقالت:

– لا.. أوه، لست أجرؤ على الاقتراب.. إنها ليست من الغانيات.

– وكذلك حدست..

– لا.. ليست من الغانيات يا ميكيلوس.. إنها زوجة الكاهن الأكبر. ثم. أنعم النظر.. أوه، لست أجسر على الاقتراب.. إن عينيها مفتوحتان.. إنني خائفة خائفة..

وتقدم ميكيلوس قليلاً، ثم هتف:

– أصبت.. إنها ليست بالنائمة باميليتا، إن المسكينة.. ميتة.

– ميتة..!

– ثمة دبوس يخترق قلبها.

ومد يده يوشك أن ينتزعه، ولكن ميليتا أمسكت ذراعه في جزع:

– لا.. لا تمسه.. إنها مقدسة، تصيب اللعنة من يمسها.. قف في حراستها ريثما أذهب لأطلب النجدة.

واندفعت هارعة، ثم غابت بين الأشجار.

ووقف ميكيلوس فترة وحيداً، يرتجف أمام الجنة الهامدة.. ثم طغى عليه الذعر لفرط الوحشية التي فرضها الموت على المكان.. وخشي في الوقت نفسه أن يتهم بالاشتراك في الجريمة، فعزم على أن ينصرف ، وقد عزم على أن لا يذكر لأحد شيئاً..

وظلت جثة المرأة ملقاة تحت ضوء القمر.. وحيدة.. مهجورة.

بيد أن الصمت الذي كان يرفرف حولها ما لبث بعد فترة طويلة من الوقت، أن لاذ بالفرار أمام أصوات تقدمت تكتسحه وبرز من بين أشجار الحدائق ألف من النساء تماسكن في خوف وتهيب وتقدمن في بطء وهن يرتجفن..

وكما تنحسر الموجة عن الشاطئ لتعقبها أخرى. تراجعت النسوة اللاتي وصلن في مقدمة الوافدات ليدعن غيرهن يتقدمن.. وكأنما كانت كل تتحاشى أن تكون أول تكتسحه.. وبرز من بين أشجار الحدائق ألف من النساء تماسكن في خوف وتهيب، وتقدمن في بطء وهن يرتجفن وكما تنحسر الموجة عن الشاطئ أتعقبها أخرى.. تراجعت النسوة اللاتي وصلن في مقدمة الوافدات، ليدعن غيرهن يتقدمن.. وكأنما كانت كل تتحاشى أن تكون أول من تقع عيناها على جثة القتيلة,

وانطلقت من الألف حنجرة.. صيحة واحدة.. صارخة مرتاعة.. وارتفعت ألفان من الأذرع في الهواء. وانبعث ألف صوت تخنقه غصة باكية: "حوالينا لا علينا يا معبودتنا!.. أيتها الآلهة.. إذا شئت أن تنتقمي.. فجنبينا نقمتك!"

وطغى على الأصوات صوت يائس: "إلى المعبد..." فرددت الأصوات الباقية الدعوة.. ثم.. تراجع الحشد البشري إلى المعبد، وراحت البائسات يقرعن أبواب الهيكل البرونزية بقبضاتهن الهشة الضعيفة.

ذل.. وصد!

في صبيحة اليوم الذي أعقب المادية التي انتهت بالمأساة في دار باكيس.. وقعت بالإسكندرية ظاهرة طبيعية غريبة فقد انهمر الغيث مدراراً.. على غير توقع أو عادة، وفي غير فصل الأمطار.. فاندفع أهل المدينة إلى الأبواب والطرقات.. يحيون المطر.. وهم مستبشرون متفائلين يرون فيه بادرة خير ورخاء.

وفيما كانت جموعهم محتشدة سرى في المدينة نبا سرقة مرآة باكيس الفضية.. فأثار فضول الناس واهتمامهم.. بيد أنه لم يشغلهم طويلاً.. إذ ما لبث أن انتشر خبر مقتل زوجة الكاهن الأكبر.. فتلقوه مكذبين مستنكرين، حتى إذا تحققوا من صدقه.. ندت عنهم صيحات الأسى.. وتملكهم توجس وخوف طاغيان وتجمعوا عند رصيف الميناء يتهامسون ويتساءلون عن تفصيلات الحادث الذي رأوا فيه نذيراً يحوم حول المدينة وانطلق الثقات من حملة الأخبار يؤكدون القوم أن الحادثين– سرقة مرآة باكيس ومقتل زوجة كبير الكهنة– قد أقدمت عليهما يد واحدة.. ولكن يد من هي؟ وخشى الجميع أن تغضب المعبودة على المدينة فتنزل بها سخطها ونقمتها.. فقد عرف منذ القدم، أن أي حادثين من هذا النوع لابد أن يعقبهما ثالث.

وقبع القوم يترقبون هذا الحادث الثالث، ممسكين أنفاسهم ذعرا

وخوفاً، مرتجفي الأوصال مبهوتين، وقد رانت عليهم كآبة رهيبة موحشة.

وفجأة، رأوا جمعاً يهرع من الحدائق.. في ذعر وجزع وسرت صيحة:

"الغانيات.. الغانيات!"

ولكن أحداً لم يحر حراكاً، بل ظل الجميع ينتظرون.. واقتربت الغانيات وهن يجرين وكأنما الموت في أعقابهن.. وفتحن أفواههن، فإذا الصمت يشمل الجميع.

"لقد سرقت قلادة المعبودة!"

وتلقى القوم النبأ وكان كل كلمة منه مطرقة ثقيلة هوت على رأس كل فرد منهم. وانبعثت الصيحات بائسة قانطة.. وسرت الحركة، فعاد الحشد يهتز كأمواج بحر مضطرب ثم اندفع الجميع صوب طريق "دروم"

وخلا رصيف الميناء.. إلا من رجل وامرأة.. كانا الوحيدين اللذين يعرفان السر فيما روع المدينة.. وأهاج شجون أهلها.. كرايزيس.. وديمتريوس

وهرعت كرايزيس إلى ديمتريوس وقد ثملت بنشوة الزهو وأسكرتها الشهوة

وصاحت: إذن فقد فعلت ما طلبت؟

فأجابها ببساطة: أجل.. فكل رغباتك مجابة!

وكان جالساً على كتلة من الرخام.. فألقت بنفسها على ركبتيه، وقبلته وهي تعانقه في وجد قائلة:

– إنني أحبك.. أحبك! ما شعرت قط بما يضطرم بين جوانحي الآن من عاطفة.. يا للآلهة! الآن قد عرفت حقيقة الحب.. وهاأنذا يا غرامي أهبك فوق ما وعدتك منذ يومين أنا التي ما اشتهيت مخلوقاً قط.. وما كنت أحلم أن يطرأ على هذا التحول سريعاً فأحبك.. وأهبك كل ما أملك من خير وبراءة وإخلاص، وعاطفة. أهبك روحي العذراء البكر ألا صدقني يا ديمتريوس!. تعال معي نهجر هذه المدينة إلى مكان خفي لا يعمره سوانا. أنا وأنت ستمر بنا أيام لم تشهد الدنيا مثلها. أبداً لم يقدم عاشق على ما فعلته من أجلي. وقط لم تحب امرأة رجلاً مثلما أحبك. محال! إنني لا أكاد أقوى على الكلام. الكلمات تختنق في حلقي. أترى؟. إنني أبكي. وها أنذا أعرف أيضاً، لم يبكي المرء؟.. إنه يبكي الفرط سعادته. ولكن ما مالك لا تجيب؟. لم لا تتكلم.. قبلني.

ولكنه أنهضها. ثم نهض، فنفض ثيابه وقال في تلطف وابتسامة هادئة:

– كلا.. وداعاً!

وابتعد في خطوات هادئة. ووقفت كرايزيس مذهولة مشدوهة، فاغرة فاها.. باسطة يديها: –ماذا؟.. ما.. ماذا تقول؟

فردد: أقول.. وداعاً.

– ولكن.. ألم تك أنت الذي..؟

– بلى.. فقد وعدتك.

– إذن.. لست أفهمك.

– يا عزيزتي. لا يهمني فهمت أم لم تفهمي. فإني أدع هذا اللغز لذكائك. وداعاً..

– ديمتريوس.. ماذا أسمع؟.متى كانت لك هذه اللهجة الغريبة؟ أو أنت حقا الذي يكلمني؟ ألا افصح إلي.. استحلفك.. ماذا حدث بيننا؟

– أو ينبغي أن أكرر ما قلت مائة مرة؟ أجل، لقد أخذت المرآة.. أجل! لقد قتلت زوجة الكاهن لأحصل على المشط الأثري. نعم. لقد انتزعت العقد ذا السبع شعب من عنق المعبودة , وإني أقدم إليك الهدايا الثلاث، لقاء تضحية واحدة أسالك أن تقدمي عليها. ألم تقدري لها ثمناً غالياً؟ ومع ذاك فلن أطالبك بهذا الثمن. ولن أسالك أكثر منه إنما افعلي بدورك ما فعلت. ودعينا نفترق.. كم أعجب إذ لا تفهمين بعد كل هذا، موقفاً هو غاية في البساطة والوضوح.

– إذن، فاحتفظ بهداياك.. أتراني أفكر فيها؟.. إنما أنت الذي أبغي.. أنت وحدك..

– أعرف هذا. ولكني أقول لك مرة أخرى. لم تعد لدي رغبة. ولما كان الرضا من جانب العاشقين هو دعامة الحب، فإنني أرى أن الرابطة بيننا لن تتحقق. إنني أحاول إفهامك بكل ما أوتيت من منطق ولغة. إنني أرجوك أن تعرفي الحقيقة كما هي، دون أن تحاولي كشف ما تخالينه من معميات تحوطها. إنني أود بصراحة أن أختم هذا اللقاء الذي لا نتيجة له، والذي قد يفضي بي إلى مالا أحب.

– أوشي بي إليك الواشون؟

– كلا..

– أوه، أقسم إنهن وشين بي إليك.. إن لي عدوات لدودات يا ديمتريوس! لا ينبغي أن تنصت لهم.. أقسم لك بالآلهة أنهن كاذبات.. صدقني أنا يا حبيبي.. أي دافع يبعثني على خداعك إذا كنت لا أرجو منك سواك. إنك الوحيد الذي أفضيت إليه بمثل هذا.

فحدق في عينيها وقال:

– لقد فات الأوان.. ولقد حظيت بك

– تهذي.. متى كان ذلك؟ وأين؟ وكيف؟

– إنما أقول الصدق. لقد حظيت بك بالرغم منك. لقد وهبتني كل ما تقت إليه من مفاتنك، دون أن تدري. لقد قدتني في الليلة الماضية إلى البلاد التي تريدين أن تقصدها ولقد كنت أجمل مما أنت.. آه، ما كان أحلاك يا كرايزيس! ولقد عدت من تلك البلاد. ولن تردني إليها قوة بشرية. إن المرء لا يجد السعادة مرتين في اليوم الواحد.. ولست من الجنون بحيث أفسد على نفس ذكري هنيئة.. ألا تودين أن تقولي إنني مدين لك بهذه الذكرى؟ ولكنني لم أحب غير شبحك. فاعفيني يا عزيزتي من أن أشكرك.

فاعتمدت رأسها براحتيها وصاحت:

– إنه فظيع.. فظيع... ومع ذلك فهو يجرؤ على الافضاء به!. إنه مغتبط بهذا الحديث!

- توشكين أن تفهمي.. لقد أخبرتك إنني حلمت بك ، فهل تأكدت إنني كنت نائماً؟ أنباتك إنني كنت سعيداً فهل ترين السعادة هي كل هذا الشعور الجثماني الذي تجيدين إثارته، كما أخبرتني، والذي لا تستطيعين تغيير ألوانه، مذ كان متشابها لدى كل النسوة اللاتي يهبن أنفسهن للرجال؟. لا، إنما هي رغباتك وعاطفتك التي تخالينها رغباتي وعاطفتي.. وما أخالك على علم بكل المباهج التي تخلقها خطواتك.. إن سر التباين بين الغانيات يرجع إلى أن لكل وسائلها الخاصة في تحين وانتهاز الفرصة التي لا تستحق- في حد ذاتها- كل ما نبذل من جهد ونعاني من متاعب في بحثنا عن العشيقة المثلى.. وعلى كل حال، فهكذا يسرني أن أتصور.. ولعلك لا تستكثرين على خيالي الذي ابتدع تمثال أفروديت في المعبد، أن يصورك في سهولة على حقيقتك.. ومرة أخرى لن أخبرك بما إذا كان هو حلماً ليلياً، أو خيالاً، وأتاني في اليقظة.. ولتقنعي بأن تعرفي أن شبحك قد تجلى لي- سواء في الحلم أو في الخيال- في صورة غير معتادة.. ومهما كان ما حدث وهما وخالاً، فإنني أحذرك من أن تفسديه علي يا كرايزيس.

- وما نصيبي في كل هذا.. أنا التي مازالت تحبك رغم الكلمات المروعة التي أسمعها منك؟ هل وعيت حلمك الغريب؟ هل شاطرتك السعادة التي عنها تتحدث، والتي سرقتها مني.. سرقتها.. إنني أكاد أجن.

فتخلى ديمتريوس عن لهجته الهادئة، وقال في صوت مرتجف قليلاً:

- وهل كنت عابثة بي، حين انتهزت فرصة عاطفتي المباغتة، لتحمليني في

ساعة جنون على إتيان ثلاثة أمور كانت كفيلة بأن تحطم كياني، والتي ستخلفني إلى الأبد في حالة خجل وعار.

- إذا كنت فعلت ذلك، فإنما فعلته لأجتذبك.. فما كنت لأنالك، لو إنني وهبتك نفسي في سهولة.

- إذن فقد نلت مني كفايتك.. نعم أن عهدك بالسيطرة علي لم يطل، ولكنك رغم ذلك ألقيت بي في إسار الرق والعبودية التي تمنيتها.. فدعيني اليوم أحرر نفسي!

- ما الرقيق العبد سواي يا ديمتريوس

- أجل، أنا أو أنت.. ذلك الذي يحب الآخر منا.. العبودية! الاسترقاق! هذا خير اسم للعاطفة، ليس لكن معشر النساء غير حلم واحد.. غير فكرة واحدة.. أن تتذرعن بضعفكن إلى تحطيم قوته.. أن تسيطرن بعيشكن على ذكائه! إن ما تتمناه كل منكن إذا ما نمت وترعرعت هو أن تربط زمام الرجل إلى ساقها، لا أن تحب أو تحب أن تذله، أن تحني رأسه لتجعل منه موطئاً لنعلها، فإذا عجزت عن إحناء رأسه، أو كسر كبريائه، عبدت اليد التي تصفعها، والفم الذي يسبها! إن الرجل الذي يرفض تقبيل قدمك العارية اليوم، هو نفس الذي يتوج رغباتك ويتصدر أمانيك في الغد، ذلك الذي لم يبك عندما غادرت بيته بالأمس، يستطيع أن يعيدك اليوم إليه مسحوبة من شعرك.. إنما يبعث هوانا من دموعنا.

- آه.. اضربني إذا شئت، ولكن أحبني بعد ذلك.

واعتنقته وقبلته فجأة، قبل أن يجد الفرصة لتحاشي شفتيها، ولكنه خلص نفسه من أحضانها، وقال:

– إنني أكرهك.. وداعاً.

بيد أن كرايزيس تعلقت به وهي تهتف ضارعة:

– لا تكذب.. إنك تعبدني.. روحك مفعمة بهواي، ولكنك خجل لانصياعك. ألا أسمع يا غرامي.. إذا شئت عزاء لكبريائك الجريحة، فإنني سعياً وراء استبقائك لنفسي، أعطيك أكثر مما طلب منك.. دعني أجلك بها فبعد ارتباطنا لن أشكو من الحياة أو أتألم..

حدق فيها ديمتريوس بدهشة وكما سألته منذ ثلاث ليال، سألها:

– أو تقسمين؟

– بحق أفروديت.. أيضاً

– إنك لا تؤمنين بأفروديت.. أقسمي بيهوذا فشحب وجهها وترددت، فسألها:

– أتابين؟

– ولكنه قسم عظيم.

–لا أريد سواه..

وبدأ عليها التردد ثم ما لبثت أن أقسمت، وأردفت متسائلة:

– ماذا تسأل يا ديمتريوس؟

ولكنه ظل صامتاً، فقالت:

- تكلم يا حبيبي.. عجل فإني خائفة.

- إنه أمر بسيط.. لن أسألك أن تقدمي إلي بدورك ثلاث هدايا.. فإن هذا يخالف العادة.. ولكنني أسألك أن تتقبلي الهدايا، أفليس لي هذا الحق؟

قالت في ابتهاج:

- بلى.. بكل تأكيد.

- إنك لا تطمعين في أن تستعملي في زينتك هذه المرأة.. وهذا المشط.. وهذه القلادة التي حملتني على الحصول عليها من أجلك.. أليس كذلك؟ فالمرء لا يستطيع أن يتحلى بمرآة مسروقة.. ومشط قتيلة.. وقلادة الآلهة، ولذا فقد كانت قسوة أن تكلفيني -كثمن لحبك- بثلاث جرائم انقلبت لها المدينة اليوم رأساً على عقب.. وإن ما أطلبه منك هو أن تتحلي بها! اذهبي إلى الحديقة المغلقة التي يقوم فيها تمثال ستايجيان هيرميس.. فهي دواما خالية.. ولن تجدي من يزعجك فيها.. ثم ارفعي كعب المعبود الأيسر، فإن هذا الجزء من تمثال مكسور.. وستجدين في داخل القدم.. مرآة باكيس فخذيها في يدك.. ومشط نيتوكريس فغيبيه في شعرك.. وقلادة المعبودة أفروديت ذات الشعب السبع فطوقي بها عنقك.. وفي هذه الزينة يا كرايزيس الجميلة.. أذهبي إلى المدينة.. ولسوف يسوقك الشعب إلى جنود الملكة.. ولكن.. بعد أن تكوني قد نلت ما تتمنين.. وسأزورك قبل مشرق الشمس في سجنك!

حديقة هيرمانوييس

هزت كرايزيس كتفيها في شيء من عدم الاكتراث.. معتزمة في نفسها أن لا تتقيد بقسمها.. بيد أن الفضول ثار في أعماقها.. فعقدت العزم على أن تذهب إلى المكان الذي خبأ فيه ديمتريوس الأسلاب، فتكحل عينيها بمرآها.. وهفت بنفسها الرغبة في تلمسها.. والتمتع بوميضها تحت أشعة الشمس الزاهية.. ولاح لها أن فوزها لن يكتمل إلا إذا وضعت الأشياء التي طالما صبت إليها نفسها وحلمت بامتلاكها في راحتيها.

أما ديمتريوس، فسوف تصل إلى وسيلة تستعيد بها سلطانها عليه، فتربطه إليها إلى الأبد، ولكنها لن ترض لمشيئته، أيا كان حبها له، ومهما كانت رغبتها في التغلب عليه وقهره وإخضاعه لسطوة عاطفتها. فتبتاعه بالثمن الذي طلبه بحياتها.

أي نهاية أرادها لها!

أن تحمل المرآة الأثرية والمشط الملكي والقلادة الإلهية تحت أعين القوم. ثم يكون لها أن تستمتع بديمتريوس طيلة الليل، حتى مقدم الفجر. فتتعرف إلى أثر الحب العميق. وكيف تفقد المرأة عقلها. ثم تموت حوالي الظهر دون ألم. أي مصير!

ولكن، لا.. إنها لن تترك نفسها تنصاع للإغراء!

ومع ذلك فقد فطنت إلى نفسها بعد فترة، فإذا هي قد قطعت

الطرقات.. وشقت لنفسها سبيلاً بين جموع الناس. وانتهت أخير إلى حديقة هيرمانوبيس المهجورة. التي يتحاشى السابلة الاقتراب منها.

وتقدمت كرايزيس إلى الحديقة، والصمت الرهيب يهفو بأعصابها.

ووجدت نفسها عند التمثال. وتلفتت حولها وفي عينيها نظرة خائفة متوجسة، تطمئن النفس إنها وحيدة في الحديقة المقفرة. وسمعت خلفها حركة، فاهتز كيانها جزعاً، ولكنها تبينت إنها لم تصدر إلا عن "سحلية" نفذت إلى فجوة في قاعدة التمثال اتخذت منها لنفسها مأوى.

وأزاحت مؤخرة قدم الإله. وأمسكت بأنفاسها إذ تبدي لعينيها فجأة وميض اللآلئ، ثم أخرجت القلادة. ما كان أثقلها! ما كان ليخطر لها قط أن للآلئ مثل هذا الثقل.

ووضعتها حول عنقها. وأغمضت عينيها تستعذب برودة اللآلئ وهي تمس نحرها.. وسوتها بيدها على صدرها في نشوة. ثم تناولت المشط. فتأملته برهة، وراحت تتحسسه في شغف. ثم غيبته بين أمواج شعرها.وتحولت تستخرج المرآة الفضية. فتطلعت فيها تتبين معالم الفوز في ملامحها.. ووميض الزهر في نظراتها.

وأحكمت بعد ذلك لف أزارها حول جسدها حتى لم تعد تبدي منها غير عينيها.. وانطلقت دون أن تعيد الأسلاب إلى مخبئها، كما كانت تعتزم.

أفروديت

عاد القوم بعد أن تبعوا الغانيات إلى المعبد ليتأكدوا من سرقة قلادة المعبودة. يحتشدون على رصفة الميناء تجاه فاروس. والقلق آخذ منهم كل مأخذ. والذعر يسيطر على نفوسهم.. وقد تجلت إمارات الهم والأسى على وجوههم المكفهرة. كان أخشى ما يخشونه أن تغضب الآلهة لهذه الجرائم الثلاث فتهجرهم وتتخلى عنهم. وتحمل معها الرحمة والبركة من الإسكندرية.

لم تحفل بهم كرايزيس ، ولم تهتم لشأنهم، بل مضت في طريقها لا تلوي على شيء.. وقد تاهت في إطواء حلمها.. ميممه شطر جزيرة فاروس ذات النصب المرمري الشاهق ذي اللون القرمزي الملتهب وانتهزت فرصة انشغال القوم عنها.. فدفعت الباب البرونزي.. ثم أوصدته خلفها بمزاليج قوية.

ومرت بضع لحظات.

كانت الكآبة ترين على القوم.. وكانت همهمتهم الخافتة تختلط بأصوات الأمواج المتلاطمة وهدير البحر.وفجأة انبعث صيحة. رددتها مائة ألف حنجرة.

"أفروديت!. أفروديت! "

وأعقبتها صرخات كقصف الرعد ضجيجاً.. صرخات فرحة. جمعت حب شعب بأكمله وغبطته.. واندفع الجمع كسبيل طاغ نحو الجزيرة. متسلقاً الصخور. معتلياً سطوح المنازل وجدران البروج. وامتلأت الجزيرة حتى لم يعد بها موضع لقدم. ومع ذلك فقد ظلت الجماهير تندافع إليها. لا تقع العين على آخر لهم أو نهاية. وفوق هذا الخضم الزاخر. تبدت محفة الملكة بيرنيس على أكتاف العبيد.

كانت كرايزيس تبدو في مدخل الباب الشرقي.. وقد وقفت في الشرفة الحمراء المحيطة بالنصب.

وكانت عارية..كتمثال المعبودة.. تمسك يداها طرفي قناعها ألقرمزي، الذي راحت نسمات الغروب تعبث به. وقد استقرت في قبضتها اليمنى المرأة، تعكس حمرة شمس الغروب الدامية القانية.

وفي بطء.. محنية رأسها.. تحركت في عظمة وجلال متناهيين في الروعة.. صاعدة وقناعها يرفرف كلسان من اللهب.. فينعكس لونه على اللآلئ.

وواصلت الصعود، وقد تبدي جسدها الرائع ملتهباً.. تتدفق دماء الشباب الحارة في عروقه.. وتتقد جذوة الغواية تحت بشرته.

وظلت في صعودها.. نحو السماء.

القسم الخامس

الليلة الأخيرة!

قالت كرايزيس لحارس سجنها:

– حلقي جاف ملتهب، فهل لك أن تأتيني ببعض التين؟

وأسرع العبد العجوز، فحمل إليها سلة من التين الناضج.. كان يخشاها ويرهبها، فرغم الجرائم التي ألصقت بها، لم يستطع أحد أن يمد إليها بالأذى يدا.. ولو أن غيرها هو الذي ارتكب هذه الجرائم لمزقته الجماهير الغاضبة الساخطة، شر ممزق.. أوا ليس في هذا دليل على حب الآلهة لها؟

وخلت كرايزيس في السجن إلى نفسها، وقد أجبرت على ارتداء غلالة بيضاء من الصوف. وأطلقت شعرها من إساره، ثم عادت تفتن في عقصهوبسطت ذراعيها وتثاءبت.. ثم اتكأت بذراعها على حافة نافذة السجن، وتطلعت إلى الخارج ، كان القمر في أزهى آيات إشراقه.. وكانت السماء تنضح سناء وصحوا، تماماً كتلك الليلة التي فرت فيها من بلاد "الناصرة" منذ سبع سنوات.

وعاودتها الذكريات.. وتراءى لها البيت القديم الذي نشأت فيه، بعيدة عن العالم، حبيسة، إذ خرجت أمها لتبيع جسدها بين جدران حجراتها، كانت إذ ذاك تستقبل الحياة وها هي ذي الآن تودعها.

وأغمضت عينيها، وخبت ابتسامتها، وهتفت تحدث نفسها:

– آه! ماذا فعلت؟. لم التقيت بهذا الرجل؟ لم أصغيت له وأنصعت لإرادته؟. ولكن، أتراني نادمة على شيء؟ لقد شاءت الآلهة لي إلا أحب وألا أعيش.

وعادت ذكريات الطفولة تراود ذهنها.. وترددت في أصداء خيالها أغاني الصبا، فراحت ترددها لنفسها.. وفجأة، سرت في جسدها رعدة، إذ ذكرت مقطعاً من نشيد جديد.

«.. ثم يعود التراب إلى الأرض ثانية، كما كان.."

واعتمدت رأسها بين راحتيها، تضغطها في عنف وكأنها تبغي أن توقف تيار أفكارها. ولكنها فجأة أحسست بقشعريرة باردة اهتز لها كيانها في عنف.. فقد خيل إليها إنها تمسك بين يديها بجمجمة نخرة.. يا للذعر! إذن فهذا مصير الرأس الجميل الفاتن.. وهذا الجسد الدن الرطيب، الناعم البشرة، الصارخ بالغواية والإغراء.. أيلقى في ظلمة القبر مدرجاً في الأكفان؟

وتملكتها رغبة جائحة في أن تعيش، لترى كل شيء من جديد، ولتبدأ حياتها مرة أخرى.. كانت ثورة في وجه الموت، أثارها شعورها إنها أن تعيش حتى ترى الليلة القادمة وأذكاها عجزها عن أن تدرك كيف يذبل هذا الجمال وهذا البدن، وهذا العقل المتوقد، والحياة العابثة المنعمة التي عاشها جسدها.

وفتح الباب في هدوء، في تلك اللحظة ونفذ منه ديمتريوس.

اللحظة الأخيرة!

هتفت صائحة: ديمتريوس!

ثم قفزت نحوه.. ولكن الشباب لم يتحرك بعد أن أوصد الباب خلفه بالمزلاج واصطنع في نظراته هدوءاً عميقاً، ذهب بحماسها وحرارتها.. كانت تأمل أن يكون قد تحول.. كانت تطمع في حركة من ذراعيه، أو شفتيه.. أو حتى في نظرة تدرك منها أنه في لهفة إليها. ولكنه ظل جامداً لا يحير حراكا. ومرت لحظة طويلة، مملة. ثم تقدم نحو النافذة فمال يتطلع إلى مقدم النهار، بينما تهالكت كرايزيس على حافة الفراش تنظر إليه في غباء.

وتكلم أخيراً. ولكنه كان يحدث نفسه في صوت لا تسمعه:

– هذا خير مما أرادت أن التصنع في ساعة الموت يورث الغم والهم. إني لا عجب. كيف تتلقاني بعد هذا بكل هذه العاطفة؟ لقد انتهت المغامرة بالنسبة لها وغدت من الذكريات الخوالي. إن كرايزيس لم تفعل أكثر من أن تعرض في صراحة بالغة مطمحاً يساور غيرها من النساء.ولو لم يكن ثمة بد من تقديم ضحية للجماهير الثائرة بعد الجرائم الثلاث المنكرة. لأسعدني أن أطفئ لحظة نار الرغبة قد يكون للمرء مائة عشيقة. ولكنه ينبه أن يحفظ نفسه المتقدة بين جوانحها. ثم يخلفها تسبح في مباهج الحياة – بعون الآلهة– من أن ينسى أن كل الشفاه متشابهة.. كلها سواء!

ومضى يتابع تيار أفكاره المعتاد. أفكار تبعد كل البعد عن الجو الذي كان يقف فيه.. وتتعلق بأشياء تافهة. بأمور عادية مما يجري في حياته اليومية. ثم اتجه بذهنه نحو التماثيل التي ينتوي نحتها. وراح يستلهم فكرة تمثال " زاجريس " وقبل أن يتم الخطوط الأولى في ذهنه.. سمع على الباب طرقات خفيفة.. ففتح في غير عجلة.. فدخل حارس السجن العجوز يتبعه جنديان.

قال في ذلة يخاطب عشيق الملكة:

– لقد أحضرت الكاس الصغيرة.

فلم ينبس ديمتريوس ببنت شفة. ورفعت كرايزيس رأسها في رباطة جأش..

وعاد العجوز الحارس يقول:

–هيا يا فتاتي.. لقد حانت الساعة وقد ذاب السم.. ولم يعد عليك غير احتسائه لا تجزعي.. فلن تستشعري قط ألماً.

وتطلعت كرايزيس إلى ديمتريوس فلم يشح بناظريه عنها. وتناولت وعيناها السوداوان لا تفارقان طلعته.. كأس السم وقد مزج بالعسل.. لتخف حدة مرارته. واحتسيت نصف الكاس ثم.. بحركة رشيقة قدمت لديمتريوس الباقي ولكنه رفع يده رافضاً وإذ ذاك.. ابتلعت البقية ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة فيها تجلد ولكنها لم تخل من زراية.

وتحولت تسأل الحارس:

– وماذا على بعد ذلك؟

– سيري في الحجرة حتى تتثاقل ساقاك، ثم استلقي على ظهرك، فيعمل السم مفعوله.

وسارت إلى النافذة، فاستندت إلى الحائط بإحدى يديها، وأسندت جبينها إلى اليد الأخرى، ومضت ترقب الفجر اللازوردي. ملقية عليه آخر نظرات الشباب الذي قضى عليه أن يذبل قبل أن يستكمل ازدهاره.

وغمر الضوء اللازوردي العالم بغلالة شفافة، ما لبث أن انطلقت فيها خيوط قرمزية.. وولدت شمس النهار التالي.

ظلت كرايزيس في وقفتها طويلاً، حتى وهنت ساقاها. فحملها الجنديان إلى الفراش إذ أوشكت أن تترنح.

وسوي الحارس العجوز أطراف ردائها الأبيض. ثم مس قدمها وسألها:

– أتشعرين؟

أجابت:

– لا..

فمس ركبتيها وعاد يسألها:

–أتحسين؟

فأشارت إليه منكرة. وأحست أن يديها بدوريهما قد استسلمتا للموت. وفجأة. وبحركة نمت عن قوة خارقة وأتتها في لحظاتها الأخيرة،

رفعت كتفيها ورأسها– وهي كل ما بقي حياً منها– نحو ديمتريوس. ولكنها قبل أن تراه يلبي النداء، عادت تتهالك. فاقدة الحياة وقد أظلمت عيناها الجميلتان.. إلى الأبد!

وسحب الحارس أطراف ردائها فغطى وجهها. وحدس أحد الجنديين أن ثمة رابطة عاطفية كانت تربط الميتة إلى الشاب الواقف في سجنها، فجرد حسامه، واقتطع خصلة من شعرها. كان هذا، كل ما تبقى من كرايزيس الحقيقية.. الذهب النقي الذي اشتق منه اسمها.

وتناول ديمتريوس الخصلة الدافئة بين أصابعه , فمضى يفرق شعيراتها.. ثم.. وفي هناءة وتؤدة.. راح يسحقها بالتراب تحت نعله!

كرايزيس الخالدة

مضى يومان وديمتريوس محتبس نفسه في معمله ، يحاول أن يقوم بجديد في تمثال كان قد بدأه قبل أن يلقى كرايزيس، ولكنه لم يفلح، لقد تغيرت أموره منذ الصباح الذي غادرت فيه كرايزيس الحياة، لم يعد يستطيع تركيز أفكاره، وجمع شتاتها، وضرب بينه وبين الرخام الذي كان ينحته، بقناع غير ملموس.

وفي الصباح الثالث.. أحس برغبة خفية في نفسه.. فنادى أحد عبيده، وصاح به:

– أعد الحمام وأمزج ماءه بالأعشاب الذكية الشذي.. ثم هيئ العطور لتدليك جسدي وأشعل المباخر في أنحاء الدار..

وإذ فرغ من زينته.. استدعى عبدين آخرين فقال لهما:

– احملا هذه الكتلة من الطين إلى سجن الملكة.. واطلبا إلى الحارس أن يحملها إلى الحجرة التي ترقد فيها جثة الغانية كرايزيس.. وأمره أن لا يحرك شيئاً حتى أوافيه

وتريث برهة بعد انصرافهما. ثم عول على الخروج. ولدى الباب.. وقف برهة مأخوذاً بما أسفرت له عنه الطبيعة.. كانت شمس الظهيرة تغمر المدينة بضوء باهر وضاح ألسنا.. وداخله إعجاب.. وبرىء إلى نفسه إحساس غريب.. إذ رأى إنه قد انتقل إلى حياة جديدة.. لقد عاش طويلاً

في ظلام الليل ووحدته ووحشته.. لا يعرف من الضوء غير نور القمر اللجيني البارد.. يالله من برودته! كانت صبغة تصبغ حياته كلها.. وتنتشر على وجوه تماثيله، حتى تمثال أفروديت الذي خال أن الحياة تدب فيه.. كانت قسمات وجهه ترزح تحت قناع من البرودة والجمود..

وما أحس بنسيم الحياة يلفحه إلا مذ أقدم على مغامرته المفجعة.. محال بعد ذلك أن يركن الميل أو يطمئن إلى ظلمته.. ما الفرح والحبور إلا النهار المشرق، الزاخرة بالحياة.

ووصل إلى السجن، فإذا عبداه ينتظرانه، ليعلناه أنهما قد نفذا أوامره.. وفي صمت ، سار إلى حجرة الميتة.

كانت الجثة ممددة في الفراش، هامدة، وقد غطاها الرداء الصوفي الأبيض حتى أطراف أصابع قدميها، ونشر على وجهها قناع، وزينت أصابعها وقدميها بقطع فضية من الحلي.

وتقدم يرفع القناع عن وجهها فإذا بعشرات من الذباب تنفلت منه طائرة متسربة من نافذة الحجرة.. فارتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.. ولكنه ما لبث أن تمالك جأشه، ووقف يتأمل وجه الميتة..كانت تكسوه تلك المسحة الجامدة الشاحبة التي يسبغها الموت على ضحاياه.. فتبدى كما لو كان من المرمر المنحوت.. ثم خطرت بذهن ديمتريوس الكلمات التي قالتها كرايزيس في لقائهما الأول: "إنك لم تر غير وجهى، فلست تعرف مدى جمالي وفتنتي!"،، وطغت على نفسه رغبة ملحة، في أن يرى هذا الجمال، وأن يخلد له ذكرى تدوم، حتى إلى ما بعد مماته إلى الأبد!

فليرفع الغطاء عن هذا الجسد الحبيب، وليتخذ منه نموذجاً ومما رآه في الحلم الهنئ، أخلق جديد، ليخلق من الجثة الميتة تمثالاً للحياة الخالدة!

وفك الثوب، ثم نضاه عن الجثة، وألقاه في وسط الحجرة ثم رفع الجثة نفسها، فأراح رأسها على الوسادة، وقد أرقدها على خدها الأيسر، وجمع شعرها في هالة جعلت أسارير الوجه تنطق بالفتنة، وأمسك بذراعها اليمنى فوضع ساعده على جبينها، وأرخى أصابعه على الوسادة، ثم ثني ركبة ساقها اليمنى، ولفت جسدها قليلاً، وانتزع الحلي من اليدين والساقين..

وإذ ذاك، تم إعداد نموذج أفروديت النائمة ، وتحول إلى قطعة الطين، وطرح عنه وشاحه، وشمر عن أكمامه، ثم أقبل على العمل، في حمية وتحمس ونشاط متقد، لا يشعر بالوقت، ولا يحس بالعالم، ولا يفكر في غير تمثال الخلود الذي سيطلع به على العالم فيبهره.

وعندما أرخى الليل سدوله، كان قد انتهى من إعداد الوضع بالطين، فرفعه أربعة من العبيد إلى المعمل، حيث انكب ينقله وينحته على الرخام عاماً بأكمله.

وفاء

لم يطل بحارس السجن الإصرار على الرفض، حين قصدته روديس وميرتوكليا في ساعة متأخرة من ذلك المساء تضرعان إليه وتتوسلان، كي يسمح لهما أن يلقيا نظرة أخيرة على جثمان أحب صديقة إليهما، فقد كان العجوز رقيق القلب، فلانت عزيمته، فأعطاهما مفتاح حجرتها وتركهما تسعيان إليها.

وإذ دار المفتاح في ثقب الباب، أمسكت روديس بذراع صديقتها قائلة:

– ترى أجسر على النظر إليها؟ لقد كنت أحبها الحب كله يا ميرتو، إنني أخشى فتقدميني..

ودفعت ميرتو كليا الباب، فما وقعت عيناها على الجثة حتى صاحت:

– لا تدخلي يا روديس! انتظري هنا.

– ماذا؟ أراك خائفة أنت الأخرى، أترينها لم تمت؟

– نعم .. انتظري، سأنبئك فيما بعد، فلا تنظري داخل الحجرة.

كانت الجثة ملقاة على الفراش في الوضع الذي تركها عليه ديمتريوس، عندما شاء أن يعمل تمثال الحياة الخالدة وقد تناثرت على جلدها البض، بقع عديدة تنم عن أن حياة جديدة تدب في مليون من المخلوقات، من

هذه الجثة الميتة كانت الديدان قد بدأت تظهر!

وأمسكت ميرتو كليا بذراع الميتة فبسطته إلى جوارها، وكذلك حاولت أن تفعل بالساق، ولكنها عجزت، وإذ ذاك قالت:

– روديس، بوسعك الآن أن تدخلي.

ونفذت الفتاة إلى الحجرة وهي ترتجف، فما اجتمعت العذراوان أمام الجثة، حتى انخرطتا في بكاء اليم، وقد اعتنقت كل زميلتها، وراحتا تبكيان وهما تناجيان الميتة بأحب العبارات، وتناديانها بأعز أسماء التدليل.

وقالت ميرتو كليا أخيراً وهي ما تزال تبكي:

– كرايزيس يا حبيبتي.. إن روديس وميرتو كليا حزينتان كل الحزن من أجلك.. إن الأسي يربط بينهما الآن برباط أقوى من الحب الذي ضمهما من قبل. أن من تمتزج بينهما الدموع، محال أن تفرقهما الأيام. سنحمل بنفسينا جسدك الغالي يا كرايزيس إلى القبر.. ثم نقص شعرنا على مضجعك الأخير.

ولفت الجسد الجميل بالستار المسدل على الفراش.. ثم أهابت بروديس:

– ساعديني.. فلنخلع النعال حتى لا يسمع الحارس العجوز وقع أقدامنا. وليكن ما يكون من أمرنا بعد دفنها. لا تخشي يا رودي، فماذا يهمهم من جثة هامدة فاقدة الحياة.. هيا.. احملي برفق.. تلطفي.

وفي هدوء وحذر، حملتا الجثة، وراحتا تتجهان صوب الباب الخارجي.

خشوع

ما كادت الفتاتان تطمئنان إلى أنهما قد ابتعدتا مسافة طويلة عن السجن بأمان، حتى أراحتا الجثة على الأرض.. وعادتا تضعان نعالهما في أقدامهما.ورفعت العذراوان حملهما ثانية. وتأهبتا للمسير.

تساءلت روديس:

– إلى أين؟

– إلى حديقة هيرمانو بيس، فهي دائما خالية مقفرة، فلن نجد فيها ما نخشاه.

– يا لكرايزيس المسكينة.. ما خطر لي قط إنني في آخر أيامها، سأحمل في الظلمة جثمانها دون مشاعل تضئ الطريق. ودون موكب يشيع جنازتها.كما لو كان الجثمان غنيمة مسروقة.

وسارتا وهما تتبادلان حديثاً تافهاً، تعمدتا أن ترفعاً به أصواتهما كما لو كانتا خائفتين من الصمت الذي ويحوطهما، والموت الذي ترفعان ضحيته بينهما.

وواصلتا السير، وهما تستعيدان ذكريات الميتة المسكينة.. لقد كان يومها الأخير مبعث دهشة لهما.. من أين لها المرأة والمشط والقلادة؟ إنها ما كانت لتستطيع الحصول عليها بنفسها إذن، فلابد أن شخصاً آخر قام

عنها بذلك. ولكن أحداً لم يعرف لها عشيقاً يركب أخطاراً جساماً كهذه من أجلها؟ وإذا كان غيرها قد ارتكب هذه الجرائم فلم لم تبح باسمه وترد عن نفسها هذا المصير المروع؟ إن أية امرأة لا تفعل ما فعلته إلا إذا كانت أسيرة حب قوي. ترى من عساه يكون محبى بها؟

وقالت روديس:

– هل يقدر لنا أن نعرف عنه شيئاً. لقد أخذت سرها معها؟

وتعثرت قدماها إذ ذاك، وتثاقلت حركاتها. وهتفت:

– لم أعد أستطيع المضي يا ميرتو. لقد تهدمت قواي. وأوشك أن أهوي من فرط التعب لقد هدني النصب والأسى .

فطوقت ميرتو عنقها بساعدها وقالت:

حاولي ثانية يا عزيزتي.. يجب أن نحملها إلى النهاية لنكفل لها الراحة في العالم الآخر. وإلا ظلت روحها تحوم على ضفاف نهر الجحيم. معذبة مشردة، حتى إذا متنا تلقتنا لائمة عاتية .

ولكن الصغيرة لم تجد لضعفها غير الدموع. فطفقت تبكي..

وعادت ميرتو كليا تقول:

– أسرعي. أسمع وقع أقدام تقترب. قفي معي أمام الجثة لنخفيها عن الأنظار.. وإلا.. ضعنا..

وأمسكت برهة، ثم صاحت:

– إنه تيمون. لقد عرفته تيمون وأربع نساء ، آه يا للآلهة! لسوف يسخر منا إذا عرف أمرنا، فهو يضحك من كل شيء، ومع ذلك فانتظري بارو ديس، سأحدثه..

وهرعت تستقبل القادمين: صائحة في صوت باك:

– تيمون، قف، أضرع إليك أن تنصت لي، لدي حديث مؤلم خطير، يجب أن أفضي به إليك وحدك

ولكن زميلاته الأربع كن قد أحطنا بها، ترايفيرا، وسيسو، وفيلوتس ، وكاليستيرون..

وهمت ترايفيرا أن تهدئ ثائرتها.. كما تفعل بطفل صغير.. ولكن فيلوتس صاحت:

– ألا ترين إنها لا تريد غير تيمون؟

فصاحت سيسو بدورها:

– مجنونة! إن ميرتو لا تجري وراء الرجال.. فإذا هي نادت تيمون.. فإنما لأمور أخرى.. اتركنها تحدثه على انفراد.

وقالت الفتاة وهي ترتجف وتلهث.. بعد أن ابتعدن إن جثمان كرايزيس معنا هنا.. كنا نحمله إلى المقبرة.. ولكن قوى صديقتي الصغيرة خارت.. فهل لك أن تساعدنا. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً!

ونظر إليها تيمون في تقدير.. وطغت عاطفة من الوفاء على مشاعره فصاح:

– يا لكما من مسكينتين! كم كنت أبله إذ ضحكت منكما! إنكما خير منا.. لسوف أساعدكما. فالحقي بصديقتك.. وهأنذا قادم خلفك.

ثم تحول إلى زميلاته قائلاً:

–إذهبن إلى بيتي وسأتبعكن بعد قليل.. ولكن.. إياكن واقتفاء أثرى

وإذ أقبل، هتفت به روديس:

– لا تبح بهذا لأحد! لقد سرقناها لننقذها مما ينتظرها من إهانة وإهمال، فاحفظ سرنا نزدد لك حبا يا تيمون..

فقال الشاب:

إطمئني..

وحمل الجثة، فيما بينه وبين ميرتو كليا، وتبعتهما رودس في صمت.. ولم ينبس ببنت شفة، ها هو ذا يرى نقمة النفس البشرية، تنتزع منه صديقة أخرى بعد تلك التي صلبتها باكيس منذ يومين..

ووصلوا إلى الحديقة المهجورة، فتساءلت ميرتو:

– ترى أين ندفنها؟

قال: بجوار تمثال المعبود..

واختلطت خيوط من ضوء الفجر اللازوردي، بأشعة القمر الذي بزغ إذ ذاك ليحتضر بعد قليل، ورفرفت على شجيرات "الصبار" المحيطة بالتمثال كآبة ووحشة، وكان تحت تمثال المعبود قبر يرمز إلى إنه «إله

التحنيط"، فبذل تيمون جهداً جباراً حتى أزاح عنه الغطاء، فإذا هو خال.. كان جلياً أن الجثة التي ضمها قد تحللت واختلطت بتراب الأرض..

وهبط الشاب إلى القبر، ورفع ذراعيه قائلا لميرتو:

– ناولينيها.. سأرقدها في مضجعها الأخير، ثم نغلق القبر..

ولكن روديس ألقت بنفسها على الجثة باكية، وهي تصيح:

–لا.. لا تدفنوها بهذه السرعة!. أريد أن أملأ منها ناظري مرة أخرى.. للمرة الأخيرة! الأخيرة! كرايزيس! يا حبيبتي التعسة! آه.. يا للذعر! ماذا حل بها؟

كانت ميرتو كليا قد نضدت عن الجثة الستار الذي لفتها فيها فإذا بوجهها متورم منتفخ.. وقد اختفت منه كل معالم الفتنة التي كانت أروع ما رآه العالم من آيات الجمال البشري ،وتعاونت الفتاتان وهما تهتزان لفرط البكاء، فرفعنا الجثة، وأسلمتاها إلى ذراعي تيمون.

وسوى الشاب من وضع الجثة في قبرها، وأسند رأسها إلى حجر مستو.. ونثر شعرها الذهبي الغزير على صدرها، فانساب حتى ركبتيها.ثم صعد من الحفرة.

وجثت العذراوان إلى جوار القبر، فقطعت كل شعر زميلتها، وربطتاه في حزمة واحدة.. ثم دفنتاه مع الميتة.

وبهذه النهاية، ختمت المساومة بين كرايزيس وديمتريوس.. في سبيل الحب!

الفهرس